

نشارلز تشرشل

بين الدروز والموارنة

في ظل الحكم التركي

من ١٨٤٠ إلى ١٨٦٠

ترجمة فندي الشعار

دار المروج

مقدمة

بين الدروز والموارنة

تأليف: تشارلز هنري تشرشل

ترجمة: فندي الشعار

دار المروج

١٩٨٤

كتاب المجلد ١٢٨١
رقم الكتاب ١٢٨١
٠٢٨١ - ٠٢٨١

فهرس

مقدمة المترجم	٥
مقدمة المؤلف	٧
الفصل الأول	٩
الفصل الثاني	٢٣
الفصل الثالث	٣٩
الفصل الرابع	٥٥
الفصل الخامس	٧٣
الفصل السادس	٩٣
الفصل السابع	١٠٩
الفصل الثامن	١١٩
الفصل التاسع	١٣٥
الملحق	١٥١

جميع الحقوق محفوظة

وزارة المروج للطباعة والنشر والتوزيع

٢٨٨١

مقدمة

بقلم المترجم: فندي الشعار

لا بد، قبل كل شيء، من التعريف بشخصية الكاتب المؤلف، قبل الانتقال الى قراءة ما كتب، وكذلك لا بد من إلقاء الضوء على الزمان، والظروف، التي أوحى إليه قول ما قاله، فيما كتب.

فمن هو مؤلف كتاب « بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي من ١٨٤٠ - ١٨٦٠ »؟ اسمه تشارلز هنري تشرشل، ارسلته حكومة صاحبة الجلالة، الملكة فكتوريا، ملكة بريطانيا العظمى انذاك، على رأس بعثة بريطانية سياسية، الى هذه البقعة من العالم، شرقي البحر المتوسط، الواقعة على طريق الهند، درة التاج البريطاني في ذلك العصر، لدراسة اميرين استراتيجيين لبنان وديمغرافيته، وما قاله تشرشل في لبنان انه المكان الذي يصلح مقرا للدولة العالمية، وهو قول عمره اكثر من مائة وعشرين سنة.

كان وصوله الى الربوع اللبنانية في ١٨٤٢ وكان قد مضى على بداية الاضطرابات في لبنان سستان، وهو يشير الى ذلك في مقدمة كتابه ومن هنا يبدو ان اهتمام اوروبا بشأن ما كان يجري عندنا، بعلم منها ربما، شديدا، فكل شيء عند الدول الاوروبية كان مخططا له ومصمما بدقة. فقد كانت « المسألة الشرقية » في ذلك العصر، الشغل الشاغل لدول اوروبا المسيحية اذ ان الولايات المتحدة الاميركية لم تكن قد ظهرت الى الوجود. وكل من قرأ عن المسألة الشرقية، لا يجد غرابة فيما يراه من اهتمام بما يجري عندنا، يوجد الامبراطورية العثمانية المسلمة. وهو اهتمام لم يتوقف عند قدوم بعثة بريطانية الى لبنان، فقد تبعتها اليه فيما بعد بعثات من كل دول اوروبا المسيحية، تساندها الاساطيل في البحر، والجيش المشاة على البر، وما اشبه الليلة بالبارحة، تحت شعارات براقة، ظاهرها العطف على الانسانية المعذبة، وباطنها ما عرفنا.

قال عمّ جحا لابن اخيه « أتبيكي وانا عمّك » فأجابه، « انني ابكي لكونك انت عمي ». لم نكن في لبنان قبل « المسألة الشرقية » مختلفين طائفيا، أما وبعد اعلانها فلا تزال شروها تلاحقنا حتى لا نجد لحظة يهجع لنا فيها طرف او يسترخى لنا عصب، كانت مصيبتنا في الامس اننا على طريق الهند. واصبحت اليوم اننا الباب الى الشرق الاوسط، وغرفة العمليات فيه.

اجل كان وصول تشرشل الى لبنان في سنة ١٨٤٢ وبعد ان اقام فيه مدة عشر سنوات، غادره وكتب فوراً كتابه المشهود «عشر سنوات في جبل لبنان» ثم في سنة ١٨٦٢. وبعد انتهاء الاضطرابات اصدر كتابه «الدروز والموارنة» الذي تقدمه للقراء الكرام. كتابه الاول «عشر سنوات في جبل لبنان» صدر في سنة ١٨٥٣ فور انتقاله الى لندن وقبل ان ينسى شيئاً مما رآه، وسمعه، واستنبطه.

كان في هذا الكتاب باحثاً اجتماعياً فعالج من منظور انتروبولوجي وكتب واسهب فلم يترك شاردة ولا واردة الا وذكرها، درس ابرز الظواهر دراسة العالم المدقق، واضعا دراساته في مجلدات ثلاثة نحن في صدد نشرها في وقت قريب انشاء الله.

أما في كتابه الثاني موضوع هذه المقدمة فقد كتب عن احداث عشرين سنة من ١٨٤٠ - ١٨٦٠ كان موقفه منها موقف من يحمل المسألة الشرقية شعار لمهمته فقد صب جام غضبه على الامبراطورية العثمانية المسلمة التي وصفها بالشديدة التعصب، وحملها كامل المسؤولية فيما حدث. بينا وصف مبعوثي الدول الاوروبية المسيحية الى لبنان، بالغباء احيانا وبقصر النظر احيانا اخرى، لأنه كان يعتقد انها لم تحقق اهدافها، فضاعت كل جهودها امام الدهاء التركي وذكاء فؤاد باشا.

والكتاب يضعنا في دوامة احداث استمرت عشرين سنة قبل أن يوضع حد لتوقفها ولو مؤقتاً، في حساب الزمن. وتشرشل يترك باب المشكلة مفتوحاً فيناشد الدول المسيحية، وملوكها وابطارها وقادة جيوشها لأخذ الثأر ممن، على حد قوله، اذل المسيحية واهانها.

وقد لفت كتاب تشرشل هذا انتباه المفكرين والسياسيين في العالم العربي، وكان ان كلفني المغفور له المرحوم الاستاذ عارف النكدي وهو من رجالات ذلك الزمن بترجمة هذا الكتاب الى العربية وذلك في سنة ١٩٣٩ وقد قمت بالمهمة دون إبطاء. غير أن قيام الحرب العالمية الثانية وما أعقبها من نتائج حالاً دون نشره، كي لا نعيد الى الازهان ذكريات الاحداث المريرة في وقت كان لبنان يستعد فيه ليصبح دولة مستقلة ومثالا للتعايش الفاضل بين الطوائف، بيد ان ما وقع بعد ذلك، من مسببات جرت ابناءه الى ما عرفنا طوال سنوات عشر مريرة، دعاني بالحاح لتقديمه للقراء عليهم يجدون فيه علاجاً لما يعانونه.

ان المؤلف كتب ما رآه بمنظار «المسألة الشرقية» ولكنه اعطانا صورة يحسن بنا ان ندرسها دراسة علمية بعيداً عن اي تعاطف أو استغلال. وهذا هو الكتاب بين ايدينا وفيه الكثير، وقد قدم له المؤلف بذكاء وما انا إلا ناقل «وما ناقل الكفر بكافر».

بقي ان اشكر كل الذين كانت لهم يد في نشر هذا الكتاب بالعربية، هداانا الله سواء السبيل.

المقدمة

مضت بعض الشهور قبل أن تتفجر أخبار المذابح التي وقعت في سوريا، داخل العالم الحضاري، ومع أن نماذج مما حصل وصلت بالتفصيل إلى الرأي العام في الوقت الراهن عن أحداث تدمي القلوب، فان الإلمام بحقيقة ما تعنيه هذه الأحداث لا يمكن الإحاطة بها إلا بعد معرفة كلية للأسباب المتعددة التي تراكمت، وتجمعت طوال العشرين سنة السابقة فأوصلت أخيراً إلى وقوع تلك الكارثة غير الاعتيادية.

ولكوني كنت مقيماً في لبنان طوال تلك الحقبة كلها على وجه التقريب، وكنت قد أقحمت نفسي فيها مستفيداً من توافر الفرص الساحة لاستخلاص ما كان يعتمل، في ذلك الوقت، في نفوس الفريقين الكبيرين اللذين يتألف منهما مجموع السكان، من تصورات. ولما كنت أعتقد جازماً اني كنت في مركز من يستطيع التكلم كمسؤول غير متحيز عن المؤثرات التي دفعتهما، والأسباب الرئيسية التي زجتها طوال هذه الفترة المؤلمة من التحاسد والتنافس، إلى ما أوصلها في النهاية إلى دمار مشترك. فإني هنا، أقدم للرأي العام نتيجة ما استخلصته على أمل أن يساعد ذلك كل الذين يولون أحداث سوريا اهتمامهم، على ضبط عواطفهم، وتوجيه أحكامهم.

إن تحليلي المذهبي والسياسي لتصرفات كلا الفريقين: الدروز، والموارنة، مبني على علاقات حميمة وشاملة مع الطرفين، وان تصويري للأخلاق التي يتحلى بها أي منها، مبني على اختبراتي ومطالعاتي الخاصة. ولست أتهم أحداً ولا أدافع عن أحد، بل أترك للقاري أن يستنتج ويحكم.

كم هو شنيع، وإلى حد يفوق التصور، أن تتآمر حكومة على رعاياها، بعد أن

تكون قد جردتهم من سلاحهم عمداً ، انه بسبب هذه الأعمال الوحشية تقف الدولة التركية في قفص الاتهام مُدانة ومُتهمة من دول أوروبا - وان الصفحات التالية تتضمن أقصى ما توصلت إليه التحقيقات بما خصّ ضخامة الفظائع التي تورط بها الأتراك . وهذه الصفحات ، تبين أن المسلك السياسي ، الذي جعلوه يبرز بربريتهم ، في معاملة المسيحيين المواطنين ، ليس مجرد نزوة طارئة ، أو تصرف غير منضبط ، بل هو تعمد محسوب ومدروس ، توحيه روح الحقد والضعينة ، التي نصبت شباكهها عبر السنين العديدة لتحاصر وتسحق بأقدامها ضحاياها التعساء .

إن الوقت آتٍ دون إبطاء ، عندما ستصبح نداءات المسيحية والانسانية ، فاعلة في اجتذاب الآخرين إلى التعاطي « بالمسألة الشرقية » المثيرة للغضب الشديد ، وإني لأمل ، متفائلاً ، أن يكون هذا العمل الذي قمت به كافياً لدفع الآخرين للأخذ بوجهة النظر هذه ، عندما تناقش تصرفات انكلترا الحالية أو المرتقبة إزاء ما ترمي إليه الامبراطورية العثمانية من وراء سياستها هذه .

تشارلز هنري تشرشل

الفصل الاول

إلقاء نظرة على تاريخ الدروز والموارنة - الدين الدرزي -

الحكم التركي والمصري في سورية .

الفصل الأول

ظهرت للأوروبيين المقيمين في الامبراطورية العثمانية، الذين كانوا على اتصال دائم بالأتراك ذوي السلطة، والذين كان يتسنى لهم مراقبة وتحليل المنهاج العام لسياستهم الداخلية، المشاهد المروعة التي حدثت مؤخراً في سوريا، بأنها ليست سوى نتائج طبيعية للكراهية المستمرة للشعب المسيحي المواطن؛ تلك التي كانت ولم تزال الظاهرة المستقرة في أخلاق الأتراك.

وانه لا فائدة من التأكيد لهم بأن الباب العالي تائق لمحاربة روح التعديت الدينية والتحكم المزمّن الذي مارسه أتباعهم المحمديون، التحكم الذي يقف حاجزاً منيعاً دون القضاء على مظاهر التأخر التي لا يزال غير المحمدين يتأثرون بها، وأنه شديد الرغبة لأن يقوم بالإصلاحات الإدارية المبنية على أساس التساهل الديني الواضح. إنهم يعلمون أن هذه التأكيدات هي محض إيهام وأن هذا التفاؤل بالرغم من أنه ممارس من قبل ساسة دولتهم والسلك الدبلوماسي فيها كان بلا جدوى، بل كان خداعاً، وأن جميع أصحاب النفوذ من العسكريين والمهايين وغيرهم مع كل ما كان يرافقهم من اللجان الخاصة والرسائل الامبراطورية والوزارية التي كان الباب العالي ينثرها بافتخار من حين إلى آخر في وجه العالم، لم تكن سوى دلاء تُرمى ليلتلعها الحوت الأوروبي الهائل، المثابر على تتبع الحوادث ساهراً مهدداً.

إن هذا الاختبار يزعزع بسرعة أعمق الاعتقادات بإمكانية البعث التركي - بكل ما لهذه الكلمة عند الأوروبيين من معنى - وإن الحوادث الأخيرة هي غاية ما كان يُطلب لإقناع أشد الأتراك الوطنيين تفاؤلاً، بأن كل سنة تمر على بقاء الامبراطورية العثمانية على حالتها الحاضرة: من كراهية تكتتمها لها نفوس الدول الأوروبية، هي فقط كل ما تجنيه بالاستمرار في أغرب أوضاع للاضطراب السياسي الذي تخضع به الانسانية الساذجة.

إن الفوضى الغريبة هذه الموصولة الطرفين: بحرية معقدة وتعصب فاسد، مدينة ببدائها المشؤومة، ومولدها المرعب، وحيويتها المميتة، إلى تلك العلاقة السياسية والاجتماعية مع الولايات المسيحية التي عملت دائماً على دفع الباب العالي ليعمل أو يتظاهر بأنه يعمل المحاولة الفاشلة وغير اللائقة للتوفيق وإلغاء العداء بين المحمديين والمسيحيين. بينما نرى العالم الاسلامي يمتثل هذا الاتفاق؛ فقد علمنا التاريخ مطلقاً؛ ان هاتين الأمتين لا تعيشان معاً إلا كحاكم ومحكوم في وضع الغالب والمغلوب، وهكذا، فبينما نرى السلطان ووزراءه، تفادياً لموقفهم الحرج، يصرحون للعالم الخارجي باعترافهم بالمساواة الدينية والمدنية: نراهم من ناحية أخرى لا يجسرون، خوفاً من إثارة الشعور الديني بين المتدينين من أتباعهم المحمديين، أن يتخذوا التدابير التي تظهر حزمهم ومهارتهم. وزيادة على ذلك فقد تفتشت بلا ريب، في السنين الأخيرة فكرة صادرة عن الباب العالي، قد تكون بإرادته أو بدونها، في جميع أنحاء الامبراطورية، تشجع كل المؤمنين الحقيقيين على اتباع خطة معينة نحو غير المحمديين؛ خطة ليست سلبية فحسب بل عدائية مطلقة.

إنه ليس من الصعب اكتشاف روح العداء التي ينفثها الأتراك، على الأخص في صدد هذا الإيقاظ المقصود، لإثارة العداء المحمدي القديم لأن الكبرياء القومية، والكبرياء الدينية، كانت ولا تزال أكثر صفاتهم الخلقية ظهوراً. إنهم يشعرون باقتناع كلي بأن مبدأ التساهل الديني الذي يدفع به الأوروبيون بينهم إذا ترك لينتشر ويقوى في مقاطعاتهم فانه بلا ريب سيضعف السيادة الراهنة التي يعتبرونها ملكاً لهم بفضل الانتصار. وهم يقدررون بأن سماحهم الفعلي لغير المحمديين بالتمتع بكل ما يتمتعون به هم من حقوق وامتيازات، مساواة لهم بأنفسهم سيقودهم تدريجياً بل أكيداً إلى السيادة العليا التي يضمنها الذكاء الخارق والنشاط والجهاد لكل من يتحلى بها. إنهم ينظرون بريبة صامته إلى حالة التحسن التي أوجدها هؤلاء غير المحمديين: هؤلاء الأذلاء الضعفاء، المقصرون، في مقاطعاتهم.

إنهم يرونهم طموحين متفائلين انشائيين واثقين بأنفسهم ثقة هي عبارة عن تجاسر. وهم يعرفون بأن هذا الميل العدائي لا يتقوى من قوتهم التضامنية المستقلة، بل يتغذى من مؤثرات خارجية. ويلاحظون أنهم مضاعفوا التسليح بالعطف الديني الخارجي المهذّب؛ ولهذا فهم يمتنونهم ويخافونهم.

وقد كان من المظنون أن يلجأ الأتراك بكل ما لهم من قوة لوقف كل ما يعتقدونه

تهجماً من الأرفاض المتعصبين بواسطة المساعدة والاغراء، وأنهم سيحاولون اجراء جميع الوسائل المعاكسة، بالدهاء، والواربة والرياء وبكل أنواع النفاق والمكر ليتحاشوا تنفيذ العهود التي قطعوها على أنفسهم لصالح غير المحمديين بواسطة حلفائهم المسيحيين. ولكنهم لو لجأوا في رغبتهم هذه إلى الدهاء الدبلوماسي بحيل معقولة لكان من المحتمل جداً أن يتمكنوا من إضعاف التدخل الأوروبي والقضاء عليه. كما وأنه كان من السهل تجريد الممثلين السياسيين من: قناصل وسفراء، من كل سلطة وتأثير لو أنهم تحايدهم بمذاقة وصبر، ولكانت سياسة الأتراك المتلونة عاشت إلى ما شاء الله دون أن تصطدم بمعترض، ولعرقلوا الذكاء المسيحي اللامع بذلاقتهم الناعمة المعقدة.

إن الحوادث الفظيعة الأخيرة التي جرت في سوريا مدعومة ومدفوع إليها، بلا ريب، من أصحاب النفوذ الأول في الامبراطورية هي التي أوصلت الأتراك إلى هذه الوضعية المقبوتة. وهي التي ساعدت على إظهار روح الهمجية المنحطة التي لا تزال كامنة في طبيعتهم، وهي التي رفعت الستار عن كرههم غير المعتدل لمسيحيينا عامة، وان كل هذا التصبر عليهم ليس فقط كثيراً بل مجزماً وان الديانة الغضبي والانسانية والمدنية معاً لتطلب اجراء بعض التدابير بواسطة القوى الأوروبية التي من شأنها أن تري هؤلاء النصف برابرة القوة التي تكبح جماح كبريائهم وتعصبهم الدموي وتجعلهم يشعرون ان المحمدي لا يستطيع، حتى في مكة، أن يذبح أو يعتدي، أو يضغط على مسيحي بدون أن يلقي على الفور عقاباً مماثلاً لاعتدائه وضغطه.

وإن الولايات المسيحية في أوروبا توصلت إلى التمتع بحق الإشراف على مصالح أخوانهم المسيحيين ومراقبتهم في الامبراطورية العثمانية - عملاً بالصلاحيات للمحافظة عليهم بحق شرعي يتطلبه الواجب الديني والضمانة السياسية. غير أن الوصول إلى هذه الغاية لا يكون بالحصول على وعد من الباب العالي أو تقديم مشورة لضمان سلامة حقيقة دائمة لغير المحمديين. ولا لزوم للتصريح بأن الاكتفاء بهذه النتيجة هو مهزلة وسخرية. لأن الاختبار دل على أن الأتراك مخادعون مراؤون متعصبون.

ثم أن عدم التدخل غير المعقول الأحق، الذي صرحت به الحكومة الانكليزية للباب العالي، وقد بنته على ثقة في غير محلها، يجب أن يلغى حالاً وإلى الأبد، لأنه ربما كان سبب كل المكائد والجرائم والأهوال التي كانت سوريا في المدة الأخيرة مسرحاً لها.

أجل؛ إن إلغاء كل هذه المجاملات الكاذبة واجب باعتبار أن كل التأكيدات والتعهدات المقطوعة من جانب الباب العالي لمصلحة غير المحمدين ستبقى، أوراقاً مهملة، ولن تكون حائلاً دون جلب الخير لهم فحسب، بل عاملاً أقوى على جلب التعاسة الكبرى للمجموع الذي وضعت من أجل خيره.

لأنه بينما يغتر، غير المحمدين بالاعتماد عليها - التعهدات - للوصول إلى رخاء وهناء لن ينالوه ويعملون على نبيله، ستَقْوِي روح الحسد في الحكام المسؤولين وتجبر وراءها كثيراً من الولايات والمتاعب، وهؤلاء الأتراك الحكام الذين لن يسألوا عما سيقدمون عليه من مخالفات سيجدون لذة في جعلهم غير المحمدين يشعرون بضالة قيمة العطف الخارجي الذي يعولون عليه كثيراً وفي قرع رؤوسهم بالنكرزات المهينة التي كان «العطف» سبباً لإنزالها بهم.

ثم إذا كانت الدول الأوروبية تشعر أن لها الحق في الاستحصال على وعود من الباب العالي بما يتعلق بغير المحمدين، فيجب عليهم إذا رغبوا في أن يكونوا حازمين - وإذا كان لهم أقل تقدير لعزة نفوسهم وكرامتهم - وإذا شاءوا في أن يكون عطفهم على غير المحمدين منتجاً، حتى لخير ضئيل - وإذا رغبوا في أن لا يكونوا مهزوءاً بهم - أن يلحوا بأن يكون لهم الحق في تعيين ممثلين في كل أنحاء الامبراطورية العثمانية، تكون لهم الصلاحية والحق في الاشراف على تنفيذ الوعود المقطوعة.

أما القول بأن أسباباً كثيرة مختلفة ساعدت على إنزال الحوادث المؤلمة في سوريا، فغير مجادل فيه ولكي يظهر ذلك مفهوماً بجلاء يجب أن ننظر إلى الحالة من جميع نواحيها المختلفة، فربما وجدنا أسباباً مخففة لنفر على الأقل من الفئتين المشتركتين بالنزاع المميت. ولأننا لا نستطيع أن نقول إن هذا الموضوع هو ذو فائدة وقتية، ولأن تأثيرات هذا الاستعراض المؤلم للنزعة البشرية الشريرة الثائرة سينشر في أكثر من ناحية واحدة ويؤثر تأثيراً دائماً على الحالة السياسية في المستقبل، وحتى في الأرجح على الحالة الاجتماعية للمذاهب المختلفة الموجودة في سوريا؛ فإيراد لمحة، عن تاريخ ماضي كل من المذهبين اللذين كانا الممثلين الرئيسيين في الحوادث الأخيرة، وعن علاقتهما بالأتراك؛ ستكون بلا ريب أمراً مفيداً وموصلاً إلى تقدير صحيح لهذا التقرير المبهج.

★ ★ ★

سمع بالمذهب الدرزي لأول مرة في لبنان في أوائل القرن الحادي عشر. فقبلت إحدى القبائل العربية التي كانت قد نزلت هناك من نحو قرنين. هذا الانقلاب الديني بواسطة نشكين الدرزي - مبشر أرسله إلى سوريا حمزه وزير الحاكم الخليفة الفاطمي الذي كان آنذاك حاكم مصر، ليبشر بالوهمية هذا التابع لعللي - فمذهب الباطنية، أو الإيمان بمعنى القرآن الباطن، الذي انتشر كثيراً وقوي في القرن الثامن، رسخ الاعتقاد بأن علياً ومن تبعه من الخلفاء مميزون بجوهر الالوهية؛ وحمزه أحد علماء هذا الاعتقاد العظيم دفع بهذه العقيدة إلى حدودها القصوى بتعليمه أن الخليفة الموجود، الحاكم، كان شخص الإله نفسه. هذا كان الاعتقاد الذي نشره للعالم الشرقي ولاقي أتباعاً في جهات مختلفة؛ مراکش، وبلاد فارس وسوريا، حتى وفي الهند. ونشكين الدرزي الذي كان مسلماً بقوة حمزه التبشيرية جمع حوله عدداً من الأتباع الذين اعتنقوا هذا الاعتقاد في المقاطعة الواقعة بين سلسلي لبنان الغربية والشرقية المسماة وادي التيم.

والدرزي هذا اغتر بنجاحه في الدعوة فأظهر نفسه بمظهر الخبر العظيم أعلن أنه رئيس المذهب. وليجذب إليه أتباعاً ومؤيدين دعا لاعتناق أكثر المباديء المخطأ. فغضب حمزه لهذا الخداع والفوضى وجرده من عمله ناعياً إياه «بالعجل» الذي كان بعض الكافرين قد نصبوه آلهة لهم. وارتأى أخيراً بأن يعدمه الدروز أنفسهم في وادي التيم. أما الرسول الذي أرسله حمزه ليقوم مقامه فقد كان المقتنى بهاء الدين. وهذا، على ما يقولون، هو الذي وضع للديانة الدرزية الأسس التي هي عليها في الوقت الحاضر. وقد كانت ولم تزال تعاليمه العديدة ورسائله أهم المواضيع التي يتذاكر بها ويدرسها الدروز في خلواتهم.

بيد أن تعاليم الدرزي كانت على درجة من الاغراء في نهجها لا يترك للذين تمادوا في ممارسة هذه الطريقة من طرق التدين، تلك التي تلقي ستاراً على الأتقياء إلى أشد نزعات الطبيعة البشرية شراً مجالاً لتركها. وهكذا فالانقسام الديني لم يستأصل بتاتاً ولم يزل الدروز حتى اليوم قسمين، ومع أنهم جميعهم متفقون في الاعتقاد بالحاكم وحمزه فمنهم من هم عاملون في سلوكهم بموجب تعاليم بهاء الدين الخازمة، النقية الصالحة؛ ومن هم عاملون بموجب تعاليم الدرزي المتساهلة المظلمة فالأول - وانه من الإنصاف أن نقول هم الأكثرية الساحقة. والآخر هم الأقلية وهؤلاء لا يستنكفون أن يندمجوا بكل أنواع المحرمات والشرور.

ولكن يظهر أن الدرزي بقي يمارس مهمته مدة من الزمن مكنته من أن يطبع اسمه على هذه الطائفة التي نشأت في بادئ أمرها عن طريقه ولهذا السبب فكل الذين قبلوا بتعاليم حمزه قد دعوا دروزاً بدلاً من أن يدعوا حمزاوين، حسب الواقع والأصح.

وقد أشار إليهم أكثر من كاتب واحد في الحروب الصليبية « بأنهم طائفة متعلقة سرياً بعبادة العجل يأكلون لحم الخنزير ويمارسون الأعمال المنحطة » وكانوا كلهم في ذلك الحين منضوين تحت سلطة دينية واحدة لا يزالون مشهورين حتى الوقت الحاضر. استأصل في مصر الاعتقاد بالوهية الحاكم الذي ثبت دعائمه حمزه منذ اعلانه وكانت أولى الأحداث لهذه التجربة غير الموفقة تغيب حمزه عن مركزه وإرسال الدرزي إلى لبنان. وبعد موت الحاكم سنة ١٠٢٥ م توارى حمزه عن الأنظار متوخياً السلامة. ولكيفية اختفائه رأيان: فهناك من قال إنه قتل، ومن قال إنه هرب إلى الصحراء والدروز على كل حال لا يزالون ينتظرون ظهوره في الصين كملك عظيم يقود أتباعه إلى الانتصار والأبهة والمجد. واعتقادهم ثابت بأن طائفتهم تنتشر في داخل الصين في الوقت الحاضر بعدد لا يحصى.

أما الذي جاء بعد الحاكم فقد أخذ أقصى التدابير لاستئصال هذه الهرطقة الممقوتة فاصدر قرار بالقضاء على كل الذين قبلوها في مصر وسوريا، أما الذين كانوا في لبنان فقد تمنعوا بمحصونه بأمن وطأينة. ولكن اجتماعاتهم حتى في هذا المكان كانت تعقد بكثير من الحذر والتحفظ. كما وانهم استعملوا لغة رمزية للتعارف العادي في الظروف الحرجة. ولم يكن يسمح بالدخول لاجتماعاتهم الخفية التي تعقد صدفة إلا لمن كانوا يتأكدون من انه يركن الى حسن اخلاقهم ومقدرتهم على الكتمان. ولكن الاضطراب في النهاية لتجربة طويلة الامد سمح حتى للمؤمنين النفعيين بالانضمام الى صفوف شديدي التمسك وهنا نجد القسمين في هذه الطائفة العقال او العارفين، والجهال او الاميين. أما في الظاهر فالطائفة بالاجمال تمارس الطقوس التي يمارسها متدينو المسلمين في شتى المناسبات.

وبما انه لم يكن بإمكان شعب انقص الى درجة قصوى، وكان يعيش بحالة الم وتعب، ان يفكر بانقلاب ديني اخر فقد ثبتوا على اعتقادهم. اما كل ما وصلت اليه الدعوة من النجاح فكان محصوراً في المدة التي وجد فيها الدرزي وبهاء الدين، وهذه المدة تقارب ثلاثين سنة. وقد صرح هذا الاخير وهو على فراش الموت ان العالم لا يستحق الرحمة الكبرى التي منحت له على ايدي الحاكم الاله والولي حمزه؛ وامر تلاميذه بالتوقف عن

السعي لزيادة الاتباع ميبنا لهم ان هذا العمل لا يكافأون عليه الا بالقسوة والعقاب. فالعمل لنشر الدين توقف منذ ذلك الحين، وباب الخلاص اغلق واصبحت الديانة الدرزية حقاً وراثياً، وذخراً مقدساً، وكنزاً ثميناً؛ يجب المحافظة عليه من الاهمال والوهن. واخذ الدروز منذ ذلك الحين يكتسبون قوة ومكانة. بمجرد زيادة عددهم الخاص فقط.

وبما ان قبيلة تنوخ اعتنقت تعاليم حمزه فاننا نجد انها كانت تقدم، حتى واسط القرن الثاني عشر الحكام العظام الذين كانوا ينظمون شؤون الدروز. فكانت قصورهم تتوج اجمل المواقع في جبل لبنان وكان عدد كبير من القرى الدرزية المزدهجة بالسكان والتي تمتد على طول السفوح الجنوبية، تزدان بمظهر عام من التقدم وال عمران.

وفي الحروب الصليبية كان الدروز يقدمون لصفوف المسلمين نجدة ذات اهمية. وفي القرن الخامس عشر وصلوا الى قمة مجدهم فاحتلوا بيروت وصيدا. ثم ادخلت بينهم العائلة المعنية المحمدية التي تقلدت بالسيادة الاقطاعية من قبل السلطان نور الدين وخلفت اخيراً العائلة التنوخية في مقامها ومنزلتها العالية. ولم تكن ديانة الحكام عقبة تحول دون الاخلاص بين الدروز لانها، على ما يعتقدون لم تكن لتغير من اعتقادهم او لتختصر في امتيازاتهم. فالمسلمون والمتاوله والمسيحيون كانوا يجدون سلامة تامة وحرية دينية مطلقة بينهم وكانوا « أي الدروز » يدفعون المفروض عليهم للجباة المكلفين. وهكذا فان الباب العالي لم يجرب ان يضعهم تحت سلطة الولايات التركية مباشرة الا في القرن الثامن عشر. ونرى انه بينما كان الدروز يتقنون بنجاح مطرد في لبنان بنزعة طيبة، جعلت تلك النواحي، تنسب اليهم فتلقب بالجيل الدرزي، كان القسم الشمالي يزدهر ويبلغ اعلى درجة من التقدم الزراعي على يد الطائفة المارونية المسيحية.

ويبين لنا بنسيفورس في تاريخه الكنسي ان المارونيين كانوا في الاساس طائفة تعتقد بالوحدانية اوجدها الناسك مارون الذي كان يعيش على ضفاف العاصي قرب حماه في القرن السابع. وفي تصريح اثبته وليم الصوري وجاك ده فيتري والاخير كان مطران عكا في القرن الثاني عشر، في تاريخه (هستوريا هيروزليميتانا) Historia Hierosolymitana الذي كتب اجابة لطلب البابا هنوريوس الثالث يقول: « انهم رجال مسلحون بالعصي والسهام وماهرون في الحرب يسكنون جماعات كبيرة في جبال المقاطعة الفينيقية ليس بعيداً عن مدينة بيلوس يدعونهم المارونيين نسبة الى رجل هو رئيسهم مارون، هرطوقي، كان

يؤكد لهم ان في المسيح ارادة واحدة او فضيلة مفردة. والمسيحيون في لبنان خدعوا بالتعلق بخطأ مارون فاستمروا منفصلين عن الكنيسة ما يقرب من خمسمئة سنة. واخيرا تغيرت قلوبهم فاعتنقوا الكاثوليكية على يدي الاب القدوس عاموري بطريرك انطاكية والتزموا تعاليم الكنيسة الرومانية المقدسة» وهكذا فقد بقي المارونيون الى نهاية القرن الخامس عشر حتى اعترفوا برئاسة البابا في نظامهم الديني ومنفذ هذه الخطوة هو اوجينوس الرابع سنة ١٤٣٨ م.

وقد كان على المارونيين بعد طرد الفرنج من سوريا بواسطة الملك الاشرف سنة ١٣٠٠ ان يحموا استقلالهم من غزوات المماليك حكام مصر. ومع انهم لم يغلبوا على امرهم تماما فإن جماعات منهم كانت تطلب الراحة والسلام في بلاد غربية. فمنهم من سكنوا في قبرص ومنهم من ذهبوا، تعلقاً بشيعة يوحنا الاورشليمي الى صقلية (سيسلي) وكنديا بينما وجد عدد غير قليل منهم ملجأ اقرب للاحتواء بين الدروز في لبنان. أما المسيحيون اليونانيون (الشرقيون) (الروم) فقد كانوا بين الدروز منذ ابتداء المذهب الدرزي وهم حتى الوقت الحاضر ينظر اليهم نظرة اخوة ويعتبرونهم ضروريين لهم في حياتهم السياسية.

والمارونيون في كل ما حدث لهم من التجارب لم يتوقفوا او ينقطعوا مرة واحدة عن الفاتيكان. وبواسطته تمكنوا ان يتوصلوا الى ايجاد علاقات لهم مع الدول الاوروبية المسيحية. ولكنهم بقوا الى القرن السابع عشر حتى استلقت تدابيرهم نظر الفرنسيين. فممنحهم كل من لويس الرابع عشر والخامس عشر تحارير حامية، كانت لغتها تدل على ان الصلاحية التي تدفعهم لذلك معطاة لهم من السلطان. ثم ان التجاهل المزعوم، تجاهل المسيو دورين ده اللويس Drouyn de Llouys M. الرسمى لهذا الحق في سنة ١٨٥٤ في رسالة الى آرل أوف كلارندون Earl of clarendon في الاجابة على امر عارض هي من أفضع حوادث التهرب السياسي. أما القناصل الفرنسيون في بيروت فقد مارسوا سلطة مباشرة على الاكليروس الماروني الذين كانوا بدورهم لا يتخوفون من التفاوض بميلهم لفرنسا، ومن

التصريح بأن المارونيين هم فرنسيو الشرق.

حوالي ابتداء القرن الثامن كانت العائلة المعنية قد انقرضت فأختار الدروز لحكم جبل لبنان العائلة المحمدية آل شهاب؛ فرع من بني قريش يتصل نسبها بنسل النبي عن طريق الزيجة والدم. أما النفوذ الواسع للشهابيين في سوريا فكان باقياً من ايام خالد المكنى بسيف الله منذ فتحه مدينة دمشق وقد اقطعهم السلطان نور الدين مقاطعتي حاصبيا وراشيا في الجبل الشرقي في القرن الثاني عشر. وقد مكنتهم تجاربهم العديدة من فهم النفسية الدرزية وحكم هذا الشعب المعتر، عدداً من السنين كان نفوذهم فيها بينهم غير محدود.

كانت سنة ١٧١٣ معروفة بانها السنة التي حاول فيها الاتراك للمرة الاولى ان يخضعوا الدروز لحكم الباشا (الولاية) المباشر ومع انهم زرعوا بذور الشقاق بين الجبلين ليأخذوا حزبا الى جانبهم فقد كانت تجربتهم مقاومة بعنف وقد علمت المقاومة التي اظهرها الدروز بقيادة الامير حيدر شهاب، في المعركة الدموية الفاصلة التي جرت في عين دارة، الحكام الاتراك انه من المحال ان يجربوا ايجاد سلطة مباشرة في لبنان.

اما النظام الاقطاعي للدروز الذي وضعه الامير حيدر في ذلك الوقت فقد استمر على ما كان عليه الى ان ألغاه فؤاد باشا. والعائلات الخمس التي قسمت بينهم مقاطعات لبنان الجنوبية كانت: آل جنبلاط آل ابو نكد، آل عبد الملك، وآل عهاد، وآل تلحوق. وقد كانت دير القمر بلدتهم الرئيسية ومقر الامير وأيضاً احد مراسم المذبحة الاخيرة.

وفي سنة ١٧٥٦ حصلت حادثة سببت انقلاباً كلياً في العلاقات الودية التي كانت مستمرة بين الدروز والمسيحيين حتى ذلك الوقت، اثرت، لا على وضعية الشهابيين فقط بل على سعادة لبنان نفسه. فقد اعتنق الديانة المسيحية اثنان من الامراء الشهابيين واصبحوا مارونيين. وفي خلال بضعة سنوات تبعهم في هذا الانقلاب عدة امراء. ومع انهم لم يجسروا ان يعلنوا نبأ تغيير ايمانهم فان تفاعيل سياسة الاكليروس الماروني الجشعة، وسلوك الشهابيين العام اصبح مع مرور الايام وفي ساعة مشؤومة غير مشكوك فيه. وهكذا مهدوا الطريق في لبنان للاضطرابات الاجتماعية العامة، التي ظهرت في المدة الاخيرة بظاهرتها الثورية النكراء.

ومع ان الاتراك لم يتمكنوا من وضع لبنان تحت سلطتهم وحكمهم المباشر فإن ولاية دمشق وعكا لم يضيغوا الفرصة لاستمالة انصار لهم من بين امرائه وشيوخه وهكذا اوجدوا

مجالاً للعداء بينهم.

وفي هذا الوقت نصب أمير لبنان من قبل حكومة والي عكا غير المباشرة وكان يدفع لها الخراج السنوي. والجزار المشهور الذي حكم تلك الولاية أكثر من ثلاثين سنة منذ نهاية القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر - مرّن اتباعه على اتباع فنون الدهاء الخبيث لأخضاع الشعب وافساده بتجريده من عزة نفسه وجعله ذليلاً يتهالك في الحصول على رضى السلطة.

وهكذا فقد حنى كثير من الارستقراطيين الاقطاعيين رؤوسهم لسلطته رهبة منه او رغبة في الوصول الى غاية حقيرة وهكذا نفذت كل رغباته وامانيه. ليس من ريب في ان الجزار كان ينفذ سياسة الاتراك اللامبدئية التي لا تزال تتبع في لبنان الى الوقت الحاضر لتبقيه في حالة سيئة من الضعف والفوضى وان كل الاساليب التي اتبعوها للوصول الى هذه النهاية مهما كانت منحطة او مثيرة كانت في نظرهم قانونية بحجة.

بقيت جبال لبنان منذ احتلال السلطان سليم لسوريا في سنة ١٥٢١ تمارس استقلالها الحيوي بحرية. وكان الحاكم اللبناني ذو الاهلية والمقدرة قادراً على نشر سلطته عليها جميعاً. فالامير فخر الدين المعني استعمل سلطة الحاكم المطلق من انطاكية الى غزة. فلبنان هو في الواقع النقطة المركزية لجميع القبائل والمواقع المحيطة به. وإذا تمكن اهله من التعاون في ظل المحبة والثقة فالخطر على سيادة الباب العالي يصبح مؤكداً. ففي شماليه وجنوبيه تعيش قبائل الأمراء والنصيرية والمتاوله الذين يشعرون نحو الاتراك بكره عظيم والذين كانوا على استعداد لمؤالاة اول دولة وطنية تظهر للوجود. مظهرين لذلك علامات القوة والثبات. غير ان روح الحسد والكراهية التي ظهرت في مناوراتهم اثرت في منع حصول مثل هذه الامنية لأن سياسة الاتراك كانت تعمل لابعادهم واذكاء النار بينهم.

لم يكن في لبنان في الوقت الذي نحن بصددده اثر للتنازع الديني فالدروز والمسيحيون عاشوا معاً في محبة تامة وولاء. وخلال اي نوع من انواع الحوادث التي حصلت بينهم في ايام التنوخيين والمعنيين او الشهابيين (وكانت متعددة) فقد كانت الانقسامات حزبية لا دينية وكان في كل حزب فئات من الدروز والمسيحيين وفي زمن الامير بشير الشهابي الذي كان في الباطن مارونياً والذي امتد حكمه من ١٧٨٩ - ١٨٤٠، لم يتعمد اثاره المارونيين على الدروز بل بالعكس كان يشعر ان الدروز هم العنصر الاهم في قوته ومع

انه كان على خلاف ونزاع مع بعض شيوخهم فقد كان بجانبه دائماً قوة منهم يترأسها رجال ذوو وزن ونفوذ، ولم يطلب في حياته مساعدة من اي نوع، من المارونيين فالوضعية العامة لحالة المسيحيين اذن بين الدروز، وفي الواقع، بين القبائل الجبلية منهم كانت لهذا الوقت مرضية الى اقصى ما ينتظر ان يكونوا عليه في ولاية محمدية. والدروز، في الواقع، كانوا يكافئون خولهم المسيحيين اكثر من ابناء طائفتهم لما كان عليه هؤلاء من الذكاء والمقدرة في الامور الزراعية كما انه كان منهم اهل ثقتهم وأخصائهم هؤلاء المسيحيون انفسهم اصبحوا ملاكين وبنوا لهم قرى وشيدوا كنائس واديرة بدون ادنى معارضة وكذلك اشتركوا في كل ضروب الحياة الدرزية فكان منهم عدد كبير من الفرسان كما كان بينهم اغنياء متمولون. وهكذا فقد كانوا في الاجمال على خلاف ما كان عليه ابناء دينهم في المدن الكبيرة والسهول.

كان هؤلاء لسوء حظهم تحت ايدي الاتراك. والولاة الاتراك في دمشق، وحلب، وطرابلس، وعكا، والقدس. والمتسلمون والاغوات في القرى كانوا يستعملون كل كبريائهم الجنسية لينزلوا على رؤوس المسيحيين كل غضبهم ومصائب تعصبهم الاعمى الدائم بلا رادع ولا وازع فالمسيحيون لم يكن لهم سوى حق الحياة، لأن الحياة لم تكن لتؤخذ منهم. انهم كانوا يؤدون الجزية. ولم يكن في هذه الأيام مذابح ولا خلاف ذلك ولكنهم كانوا في الحالات الأخرى مطمورين بالمسكنة والاهانة؛ فلو ظن ان معهم مال لسرق منهم، واذا اتهموا بأنهم يملكون كنزا لعذبوا حتى يعترفوا به؛ وكان المسيحي ممنوعاً من الركوب حتى على حمار عندما يلتقي في السوق بأحد الاتراك كما كان من واجبه ان يعطيه ناحية الحائط (الرصيف) ويمشي هو في المجرى. ولم يكن يسمح له ان يرفع صوته عندما يخاطب تركيا وكان لباسهم وقلنسوتهم سوداوين؛ ولم يكن مسموحاً للمسيحي ان يحفر اسمه باللغة العربية، لأنها كانت اشرف من ان يستعملها فكان يحفره بالعبرانية او اليونانية واذا كان بيت احدهم اعلى من بيت جاره المسلم هدم وصغر. وكذلك كان محظوراً عليهم السير بالميت من امام باب جامع ما. وتجاهلوا للضغط الدائم الذي كانوا معرضين له يومياً فقد كانوا يلتمسون حماية المحمديين اصحاب النفوذ بتقديم الهدايا لهم من مختلف الانواع، وبقضاء حاجاتهم البيئية وخدمتهم. وعلى هذه الشروط كان يسمح لهم ان يتنشقوا هواء السماء، ويكونوا من الشاكرين.

في سنة ١٨٣١ دخلت سوريا تحت حكم محمد علي وكان ابنه ابراهيم باشا مكلف بتطبيق سياسته العامة التي اشتهر بها. ولكنه كان يلاقي في كل مكان مقاومة قوية للحيلولة دون تحسين حالة المسيحيين ورفع مستواهم. فقد اجتمعت في كل المدن العائلات المحمدية معاً واتفقت على الغاء كل انظمته وقوانينه غير ان ابراهيم قصر المجال معهم وبعد موقعة نازب وطد قدمه في سوريا ودخلت جيوشه الاوساط الرئيسية المعادية. وهناك قطع عدداً من رؤوس الاغوات والموظفين؛ فانتشر الخوف في كل البلاد وضمنت حرية الرعايا غير المحمدية.

فسمح إذ ذاك للمسيحيين بأن يوظفوا في مجالس الحكم واصبحت دعاويهم مسموعة في محاكم مختلطة من مسلمين ومسيحيين؛ والغني كل ما كان من الفرق في الملبس واصبحت خدماتهم كمعاونين وحكام شرعيين وحتى كموظفين عسكريين في كل مراكز الولايات مقبولة ومكافأة. وهكذا رجعت الى المدن الساحلية الجماعات التي كانت مختبئة بين الدروز، هرباً من ظلم الجزار وعبد الله باشا لتمارس اعمالها ففتحت الابواب للمتاجرة مع الاوروبيين حالاً واصبح بور بيروت يزدهم بالمشحونات من لندن ومرسيليا.

الفصل الثاني

الامير بشير قاسم - دسائس الموارنة - ١٨٤١ عراك في
دير القمر - السياسة التركية - مهاجمة زحلة.

الفصل الثاني

إن شعباً كالسوريين اعتاد الحكم التركي الركيك، المتراخي، غير النظامي ليجد إدارة ابراهيم باشا الحازمة ظلاً مطلقاً. وهكذا فإن الروح الثورية لم تكن بطيئة في إظهار نفسها. وسرعان ما ثار الرأي العام؛ إن لم يكن لمعاكسة تنظيمه المطلق فللمعاكسة في طلبه التجنيد الإجباري. فالأتراك مع كونهم قد حققوا منابع الكسب والارتزاق فانهم لم يعملوا على أخذ أولادهم بعد؛ وأمام هذه النقطة على الأخص كانوا شديدي التأثير. غير أن الحركات الثورية الفوضوية هذه كانت بلا فائدة لهم فقد أرغمت كل القبائل الجبلية على تقبيل يد المولى، والدروز كانوا آخر من شعر بجراحة ظروف ثورتهم الفاشلة. إنهم استمروا طويلاً على المنازعة غير المتعادلة بشجاعة وشهامة. ولكن أخيراً بعد أن فرغت يدهم من حصونهم في حوران انسحبوا إلى لبنان حيث قاموا مدة غير قصيرة بحربهم المتقطع مع القوى المصرية. غير أن هؤلاء استطاعوا بعد مدة، بحركة منظمة أن يطوقوهم وينتصروا عليهم. وهكذا أصبحت مهمة ابراهيم باشا بعد الانتصار على ثورة الدروز سهلة. وليس هنالك أدنى شك بأن إدارة حازمة كهذه كانت جعلت سوريا في مدة قليلة، بين يديه، مقاطعة منظمة مزدهرة.

أرسل الدروز في أثناء ثورتهم رسلاً إلى المقاطعات المارونية الصرفة يدعون المارونيين إلى مناصرتهم؛ وقد استحصلوا منهم بدون ضغط أو إكراه على وعود بالمساعدة بتلك الرغبة في التعاون التي على العموم تظهر الميل إلى الاتحاد بين القبائل. أما المسيحيون فلم يبدأوا بالزحف إلا بعد أن استسلم الدروز نهائياً. وإنصافاً لهماجهم نشبت أنهم تظاهروا بجملة اشارات كانت على الأغلب وهمية ولم يكن فيها مخالفة واحدة ذات قيمة. وكان أن عمل موظفو ابراهيم باشا على إرسال الرجال والدواب للعمل في أحد مناجم الفحم التي فتحت مؤخراً في لبنان وهذا كان نوعاً غير معقول من العقوبة لأن الرجال والدواب

كانوا يتقاضون أجوراً معينة تدفع في مواعيدها بدلاً عن أعمالهم. وهكذا فقد أخذت الثورة ونفي قادتها إلى مصر.

في أواسط صيف سنة ١٨٤٠ وفي خلال هذه الأزمة وصلت أساطيل انكلترا والنمسا وتركيا إلى الشاطئ تدعو السوريين للعودة إلى اخلاصهم للسلطان، وبهذه المناسبة أذكى المندوبون الأتراك وكان بينهم عدد من الانكليز، نار الثورة المارونية فأوجد لهم هذا الغليان مواداً كافية قوية لكتابة التقارير المستفيضة عن الظلم الذي كان المسيحيون في لبنان رازحين تحته، وعن الفرح الذي لاقوا به بترحاب منقذهم الانكليز. ولما وجد محمد علي نفسه وحيداً، لخيبة آماله بالفرنسيين الذين قضوا على كل آماله رأى أنه من العبث مقاومة الدول الأوروبية المتحدة فانسحب في خلال ستة أشهر وأعيدت سوريا إلى الباب العالي.

إذ ذاك عاد الأتراك عودة السور الكاسرة إلى فريستهم المشلولة فوضعت جميع الوظائف في المزاد العلني ووضع في مراكز التفتيش الرجال الذين اشتهروا بمحبهم للعمال وتعصبهم وهكذا فالعدالة التي جُردت في عهد المصريين من الفوضى لُطِخت ثانية ببقايا الفساد وأصبح المسيحيون مهانين في كل مكان. وكانوا في أماكن عديدة يهاجمون في الأسواق فتمزق قلنسواتهم عن رؤوسهم ويجبرون على الرجوع إلى حالة الانحطاط القديم. وأرسل المأمورون السريون إلى الجبال ليجردوا الشقاق والمنازعات الدينية خوفاً، من أن الرسوم الأميرية الباهظة التي كانت تفرض على الفلاحين في كل بلدة أو مدينة، تخلق منهم اتحاداً قوياً للمقاومة. ولجأ عدد كبير من التجار المسيحيين الذين كانوا يخافون عودة أيام الجزار إلى حماية القناصل الأوروبيين وهكذا استولى على غير المحمديين رعب عام، فأنحلت كل المعاملات التجارية ولكن لحسن حظهم كان هنالك بعض الموظفين الانكليز الذين رفعوا تقاريرهم عن الحالة إلى القسطنطينية حيث كان لتدخل اللورد سترت فورد ده ردكليف LORD STRATFORD de REDCLIFF من المفعول ما أوقف استمرار الحركة المعاكسة.

ولأول مرة لفتت الحكومة اللبنانية نظر وانتباه الباب العالي وحلفائه. فالأول أراد أن يضعها تحت إدارة باشا تركي لأن ذلك ادعى لممارسة سلطة مباشرة من قبله - وهي غاية لم يغفل عن تحقيقها طوال المدة التي حدثت فيها كل التغييرات والانقلابات. بينما لجأت

الحكومة الانكليزية إلى خطة معاكسة مراعية ميلها نحو الجبلين فرجحت تعيين أحد الأمراء الشهابيين باعتبار أن مصالح المسيحيين تكون مضمونة أبداً تحت سلطة الحاكم المسيحي. فالأمير بشير الكبير «المسن» الذي مُنع، في أول محاولة من العودة إلى موالة السلطان - لانحرافه من جهة ولاشتراك أولاده فعلاً مع ابراهيم باشا من جهة ثانية - من الرجوع سلم نفسه أخيراً ونفي إلى جزيرة مالطة. ونُصّب في المركز الخالي، الأمير بشير قاسم شهاب أميراً على لبنان.

لكن الدروز نظروا إلى هذا التعيين بشيء من الريبة أظهرت حقيقتها الحوادث التي تلت بكثير من الإنصاف. فالظلم الذي أنزله الأمير بشير الكبير عليهم في نهاية أيام حكمه جعلهم ينظرون إلى الشهابيين بكراهية بحتة فقد أنزل بثلاث من عائلاتهم الرئيسة: آل جنبلاط، وآل عماد، وآل أبو نكد، الخراب المحتم، فهدمت منازلهم وصودرت ممتلكاتهم واقتيد بعض شيوخهم إلى صفوف الجيش المصري وأجبر الآخرون على صرف بقية حياتهم في المنفى.

وهكذا نظر كل الذين رجعوا منهم إلى وضع القوة في يد عضو من العائلة الشهابية بخوف وحذر ولو أنهم برغم كل ذلك عوملوا بعطف ودراية وانتصر عليهم باللياقة والدهاء لكانوا استميلوا بسهولة ورغبة إلى ما يرضي السلطان والدول الأوروبية، ولكن تصرفات حاكمهم الجديد، لسوء الحظ، كانت حائرة، فأشعلت نار البغضاء فيهم وتنبهت عقولهم ليس فقط إلى تذكّار ما أصيبوا به في ماضيهم المحزن فحسب بل إلى تخمين ما قد يصابون به في المستقبل أيضاً.

والأمير بشير قاسم وهو على درجة عالية من التكبر والعجرفة جعلته يتوهم أنه يستطيع القيام بما قام به سلفه من تنفيذ خطته الحديدية. فكان يجد اللذة الكبرى في إهانة شيوخهم الذين يحضرون مجلسه وتهديدهم من وقت إلى آخر بتجريدتهم من امتيازاتهم الاقطاعية والتصريح لهم بأنه لن يبقى لشيخ درزي أو لابن أي شيخ منهم ظل لسلطة ما، وأنه سيعمل على توزيع مقاطعاتهم على أعضاء عائلته وإذا كنا نرى الدروز في أشد حالات الاندهاش لرؤيتهم ساعد القوة المدنية الحاكمة مرفوعاً ضدهم، فبأي صورة من الألم نراهم لدى شعورهم بأن طائفة أخرى تدفع إلى التقدم بشجاعة لتضعفهم إلى أدنى درجات الاستعباد والتأخير. وفي هذه الأزمة أعطى البطريك الماروني نفسه الصلاحية

لإصدار قانون مجرد الدروز فيه من أهم مزايا سلطتهم السياسية. فوزع على المسيحيين في لبنان منشوراً دعاة «الإعلام» أمر فيه سكان كل قرية أن يكتبوا عريضة يصرحون فيها بأنهم عينوا هم أنفسهم رجلين يقومان بوظيفة مندوبين عن أهل القرية أو المدينة اللذين ستكون لهما السلطة التي كان يتمتع بها مشايخ الدروز وحدهم. وهي خطة لو أنها نفذت لكانت قضت على كل ما ورثه الدروز من الحقوق القطاعية في الجبال وقامت مقامها ولو أن هذه الخطة نجحت لكان على البطريك وأتباعه أن يكونوا على استعداد لامتناع السيف.

والكولونيل روز ذكر في مراسلاته العبارة اللطيفة في ما يلي: «إن الاكليروس الماروني يرغب في أن ينشر سيادته في الجبال ولو كلفه ذلك إثارة حرب أهلية» حرب أهلية! - كلمات مشؤومة بملء الأسف أنها تحققت بمحصل معارك دموية وحوادث إحراق وتخريب. ومنذ هذا الوقت منذ هذا التعدي كسب أساسي، يبدو لنا تاريخ لبنان خلال مدة عشرين سنة تكوناً تدريجياً لمأساة متواصلة مؤلمة.

أجل لم يكن من المنتظر حدوث تعدد أكثر تطرفاً وقحة. وإنصافاً لهذا التعدي الذي لا أسباب موجبة لقهره ولا سوابق له نقول إن الدروز لم يكونوا قد عملوا إلى ذلك التاريخ شيئاً بخلاً لا بكلامهم ولا بسلوكهم ففي دير القمر البلدة التي كانت منذ أجيال ملكاً لآل أبو نكد استقبل الإعلام بعاصفة من الحدا وإطلاق النار والأهزيج المهيجة بينما بقي المشايخ الدروز في شبائبك بيوتهم يراقبون هذه المشاهد التي تعلن أن سلطتهم أصبحت فعلاً ماضياً صامتين كما وأن الأمير بشير مدفوعاً من البطريك، أمر بإقفال مدارس البروتستانت التي كانت مفتوحة في القرى الدرزية. وذهب نعمان بك جنبلاط بنفسه إلى البطريك ورجاه أن يلغي تدبيره الخطر، لما كان يقدره من العواقب الوخيمة لمثل هذه الاجراءات. بيد أنه لقي أجوبة قاسية فقد قال له مطران بيروت، لاذنه، متعالياً: «انتظر فلن يمضي وقت طويل حتى يطرد المارونيون الدروز جميعهم من جبل لبنان».

ولا جدال بأن فرنسا قدمت للبطريك عشرين ألف ليرة «ذهبا» غذاء لحرب تمكنه من تنفيذ غايته إذا وجب الأمر بالقوة وهكذا أخذ الدروز الموقف الدفاعي مستعينين بحيويتهم المعتادة وتضامنهم القوي لضمانة سلامتهم. وإن هذا الشعور في الجانبين جعل أمر الانفجار رهن الوقت والظروف.

والبطريك لم يكتف بما أثاره من البغضاء-والعداء بين أبناء طائفته والدروز، فأنزله على رأسه، بتصرفاته غير الحكيمة، استياء وكره الحكام الأتراك بأن أثار مسألة الجزية السنوية التي كانت تدفع للسلطان، منذ عدة أشهر بين قادة المسيحيين في الجبال. أما الدروز فكانوا يؤدونها بنظام ودقة راجين من وراء هذه الطاعة موافقة الباب العالي على عريضة التماس رفعوها إلى القسطنطينية يطلبون فيها أن يكونوا تحت حكم أحد مشايخ الدروز أو أحد الباشاوات الأتراك. بينما كان البطريك على العكس يستعمل كل نفوذه ليشير روح الثورة في المارونيين بإيهامهم أنهم على جانب عظيم من القوة والأهمية مفضلاً إياهم إلى أقصى حدود التضليل وضارباً على وتر آلامهم الحساس إلى درجة تجعلهم في حالة هي أقرب ما يكون إلى الفوضى والهياج.

لقد تمتع البطريك وأتباعه الاكليروس في أيام الأمير بشير الكبير بنفوذ واسع هو أقصى ما كانت تطمح إليه نفوسهم، فالأمير نزل عند إرادتهم فمنع كل ما يرمي إلى التساهل الديني وسحقت كل جهود البروتستانت تماماً وكان كل من يعرف عنه أنه يخالط الانكليز أو الاميركان يوضع حالاً تحت عقوبة الحرمان من الفكرة التي زرعت في عقول المسيحيين كانت أن الانكليز والاميركان كفره ملحدون خارجون عن الكتلثة المقدسة والكنيسة وقد نُشر قانون في سنة ١٨٤٠ عند وصول الأسطول البريطاني إلى الساحل في كل أنحاء الجبل جاء فيه إن كل من يحاول من أبناء الجبال النزول للتفرج على الأسطول الانكليزي تغلق عيناه، وهكذا فقد استعمل كل ما يمكن أن ينتجه العقل الاكليركي لمنع انتشار الآراء الانكليزية سياسياً ودينياً بين جماعات المسيحيين الوطنيين. غير أن بسقوط الأمير بشير قطع العنان الذي كان الاكليروس الماروني يقود به السلطة الزمنية ومع أن خلفه أظهر كل الرغبة التي يستطيعها لأن يجعل نفسه أداة لهم فمجرد وجود الانكليز على أرض سوريا أبطل السحر. والدروز رغبة منهم في أن يربحوا ضرباً معتبراً. ولاعتقادهم، أو لرغبتهم في الاعتقاد، بأن لحمزة أتباع في انكلترا فقد كانوا يرحبون بالانكليز أينما وجدوهم بكثير من البشاشة فيظهرون لهم عطف الأهل والانساء ويطلبون منهم بإلحاح أن يفتحوا لهم مدارس. إنهم كانوا يريدون أن يتعلموا وأن يتنوروا وأن يكونوا متمدنين متحضرين.

وأمام العداء المؤلم الممقوت وغيلان النفوس الغضبي الهائجة التي كان البطريك

الماروني مع الاكليروس يدفع بها ضد الدروز. وأمام محاولاتهم العديدة في المخاطرة بضم المقاطعات المختلطة حيث كان الزعماء الدروز الاقطاعيون يحكمون على المجموع الدرزي والمسيحي ومع ما دعى إليه الإعلام المشهور من تعيين العمال المسيحيين في كل قرية درزية مسيحية من قبل البطريرك فانه كان يعمل في هذه الأوساط على وضع المسيحيين تحت سلطته المباشرة المطلقة لجعلهم خاضعين لكل أحكامه ورغباته. إنه بزرع هذه التدابير في جميع مراكز المقاطعات الدرزية كان يثق بأنه سيحتفظ بدكتاتوريته الطويلة، التي قدرها، في ظل هذه الظروف المتقلبة. ثم يسحب يده بمخادقة ويغلق الباب على كل محاولة أو نظام بإمكانه تغيير شيء من هذا التدبير الكنسي الذي جعل كل مسيحي من أتباعه خادماً له وعبدًا. وأنه من المهم أن نلاحظ هذه الظاهرة الهامة في الأزمنة المتعاطمة لأننا هنا يجب أن نضع الأصبع على نبع المصائب المتراكمة التي تجمعت على لبنان من روافد عديدة ومراكز مختلفة فأظلمته وأتعتسته.

وأخيراً وجدت أطماع الاكليروس لها مخرجاً ففي ١٤ أيلول سنة ١٨٤١ حدث بين الدروز ومسيحيي دير القمر معركة أسفرت عن قتل خمسة من المسيحيين وستة عشر درزياً وجرح ثمانية من المسيحيين وستة عشر من الدروز. والسبب أن بعض المسيحيين كانوا يتصيدون الحجل في الوادي العميق الذي يقع بين دير القمر وبعقلين والذي كان خاصاً بالزعم الاقطاعي ناصيف بك أبو نكد فاجتمع نواطير الدروز وطردهم مستعملين العصي فقط. فاستنجد هؤلاء بمسيحيي دير القمر - بدون أن يشعروا بعظم خطأهم هذا - فهبت للحال نجدة كبيرة من أبناء دينهم مدججين بالسلاح إلى أذقانهم وأصلوا الدروز ناراً حامية.

ولما وجد هؤلاء أنفسهم مهاجمين بهذه الصورة الوحشية المهيجة اعتدوا بسلاحهم وأصبحت المعركة عامة وعندما رأى مسيحيو دير القمر من أماكنهم المرتفعة أن المعركة بدأت وأن جماهير الدروز تتراكم من كل مكان وقعوا في يأس غريب فخرجت النساء إلى الأسواق يلطمن صدورهن وينثرن شعورهن ولجأ الرجال المسنون إلى السطوح ليحموا المدينة في حالة الهجوم وهكذا فقد أصبحت حالة الاضطراب عامة. واستولى على جميع العقول الخوف من هجوم درزي عام ولكن من حسن حظ السكان المسيحيين أن كان الكولونيل روز فنصل صاحبة الجلالة «الملكة فكتوريا» في البلدة «دير القمر» في ذلك

الوقت فركب آمراً أحد مشايخ الدروز باتباعه حتى وصل إلى مكان المعركة، على مسافة ميلين، في الوقت المناسب فرمى نفسه بشجاعة ولباقة بين المتخاصمين وكان تدخله مفيداً إذ أصغى الفريقان لنصائحه وتوسلاته وأخذت في هذا الوقت على الأقل نيران الحرب الأهلية لتكمن تحت الرماد إلى زمن آخر تظهر فيه إلى الوجود.

تنبه الدروز إلى أن هذا العداء غير المنتظر الذي نهجه المسيحيون لجعلهم يهبون لملاقاة الحالة الحرجة بالاستعداد العام، إنهم هوجوا مهاجمات جزئية في نواح أخرى من لبنان ففي جزين قتل المسيحيون ثلاثة من الدروز كان أرسلهم الجنبلاطيون لجمع المحاصيل كما وأن شعورهم العدائي كان قد أثر بخسارة أربعة من مشايخ آل عماد وبعض النساء في بعقلين وجميعهم كانوا يتدخلون لمصالحة المتقاتلين.

وزاد في الطين بلة تصريح البطريرك الماروني انه إذا استمر الدروز على عنادهم في المطالبة بجام درزي فسيهاجمهم على رأس المارونيين ويمحيهم.

وحاول الأمير بشير من ناحيته أن يجرد مشايخ الدروز من امتيازاتهم الاقطاعية وتمادى أيضاً بأن جهز جيشاً من بين المسيحيين الشركاء مهاجماً الحقوق الوراثية لآل أبي نكد؛ وورد تقرير في ذلك الوقت يفيد أن الأمير بشير الكبير سيعاد إلى الحكم وهذا أمر كان يعرف الدروز خطره لأنه تدبير يمهّد الطريق لإعادتهم إلى حالتهم السابقة من الضعف والفرقة.

وتحت كل هذه التأثيرات فقد أصبحت القضية للدروز قضية موت أو حياة وكان عليهم أن يضربوا الضربة القاضية لأن الاستعدادات لإذلالهم كانت في حالة نضوج تام وهم كانوا في ذلك الوقت قد تعاقدوا مع الأتراك وبدأوا يتبعون بلا ريب تعاليمهم السرية.

وفي صباح اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الأول كانت الجنود الاقطاعية لآل جنبلاط، وآل أبو نكد، وآل عماد، ببيارقها الخفاقة ورجيح طبولها الداوي تحتل كل المنافذ المؤدية إلى دير القمر وتتوج جميع القمم المحيطة بها بشكل ساحر مدهش فلم يسبق أن رؤي حشد سريع تام كهذا أو تنظيم اسمى من هذا التنظيم السري الحيوي الفعال الذي يشتهر به الدروز في زحفهم الحربي. دهش المسيحيون لهذا الهجوم المفاجيء فحملوا أسلحتهم وراحوا يتراكمون وهم في أقصى درجات الرعب أما الدروز فقد استمروا

متدفقين على المدينة المطلوبة فكانوا لبضعة ساعات يصطدمون بمقاومة قوية غير منظمة في الضواحي التي استطاعوا أن يأخذوها ويحرقوها وأخيراً سيق المسيحيون إلى المركز الرئيسي حيث أخذت عائلاتهم تتجمع عند غروب الشمس؛ أما الأمير فقد بقي طول النهار محبوساً في غرفة صغيرة حفظاً لسلامته. ولم يخيم الظلام حتى أصبحت القرى الرئيسية المجاورة شعلة من نار.

وخلال ليلة الحصار كلها شاهدت البلدة دير القمر أعظم المناظر المرعبة إذ كانت السماء مضاءة بكمية عظيمة من اللهب بينما كانت تسمع بين حين وآخر صرخات الخوف من المسيحيين ودقات أجراس المارونيين الصاخبة تتخللها «زغاريد» الدروز المنتصرة. بقي الصدام بلا توقف على الإطلاق طيلة يومي ١٤ و ١٥ تشرين الأول بينما هاجم آل أبو نكد القرى المجاورة وبنجاح وذبحوا جماعات كبيرة من سكانها المسيحيين وفي ١٦ تشرين الأول وصل من بيروت إلى دير القمر الكولونيل روز يصحبه أيوب باشا في الوقت المناسب لينقذ دير القمر من خراب محتم ورجالها من ذبح لا رحمة فيه ولا هوادة فالدروز قد كانوا لذلك الحين ذبحوا عشرين أسيراً من المسيحيين بحد السيف.

والدروز عندما يثأرون، يثأرون بلا شفقة فيغمسون أيديهم في الدم بفرح وحشي يفوق حد التصديق، ولكنهم، على الإجمال لا يمسون النساء مطلقاً. عمت صرخة الحرب في هذا الوقت جميع لبنان والطائفتان في جميع مقاطعاتها اعتدتا بالسلاح حتى أن البطريك الماروني الذي كان مريضاً في ذلك الحين طلب أن يحملوه على فراشه أمام القوى المسيحية «لينشر علم الصليب ويموت على رأس القوة».

كما وأن مطران الروم الكاثوليك في زحلة أرسل نداءً يدعو فيه كل المسيحيين الحقيقيين ليتقدموا بدون خوف قائلاً لهم: «ارهبوا سلاح الجهاد ولا تعودوا من ظفر ما قبل أن تخربوا كل شيء لكن لا تمسوا النساء أما ما تبقى من قتل ونهب وحرقت أكبادوا من أنكم تقدمون عليه جميعاً. وفي خلال ذلك واصلوا صلواتكم واعترافاتكم لأن حربكم هذه مقدسة». بيد أنه أينما وقعت المعارك بين الدروز والمسيحيين فقد كان الظفر حليف الأول.

كانت الغاية القصوى لهؤلاء تخلص دير القمر غير أن جهودهم كلها ذهبت عبثاً ولم تثمر فالمسيحيون الروم انضموا مع الدروز في مهاجمة المارونيين وكان الأمراء الشهابيون

على رأس القوى المسيحية آملين أنهم إذا انتصروا يستحصلون على إعادة الأمير بشير الكبير وتجديد زمن قوتهم العائلية بيد أن الدروز تمكنوا خلال عشرة أيام من إخضاع كل المسيحيين المقيمين بينهم بعد أن أحرقوا ونهبوا قراهم وأديرتهم.

والآن تهيأوا ليحملوا الحرب إلى المقاطعات المارونية الصرفة شمالي نهر الكلب ولكن، وهذا من حسن حظ المارونيين أن نعمان بك جنبلاط الذي كان يتمتع بنفوذ واسع بين الدروز تدخل بتوسطٍ عظيم. فقد عارض حصول مثل هذه الحركة معارضة كلية حتى أنه صرح بأن كل قوة درزية تقطع النهر يهاجها حتماً وهكذا بقي محاطاً بأمناء سرّه ليل نهار فكتب عشرة آلاف رسالة إلى الدروز والمسيحيين ذوي النفوذ يدعوهم إلى وقف هذه المذبحة الأخوية. وهكذا أوقف هذا الانتصار الدرزي بواسطة أحد قاداتهم. أما البطريك الماروني الذي صدم بالنجاح المطلق لهؤلاء الذين كان ينوي سحقهم فانه حبس نفسه في بادئ الأمر في غرفة في دير وأخيراً التمس اللجوء إلى إحدى الدوائر الانكليزية.

أما في دير القمر فقد سلم المسيحيون بعد ثلاثة أسابيع من حصارٍ ضيق. ورموا سلاحهم في ٥ تشرين الأول، وجد الأمير بشير نفسه سجيناً لا معين له فقرر مغادرة البلدة قابلاً بشروط فرضها عليه الدروز بمصادقة الباشا في بيروت وكان لانهزامه منظر احتقار كلي، فعند تركه مقره يرافقه الأتباع على خيولهم أخذ منه ختمه وسيفه بشكل عنيف جرحت أثناءه يده كما وأنه جرد من قلنسوته والقسم الأكبر من ملابسه وأطلق عليه أحد الدروز طلقاً نارياً فأخطأه. ولما اقترب من بيروت شاهد مسكنه الخاص ومنازل الأمراء الشهابيين ومساكن بعبداء والحدث ملتهبة وأتباعه المسيحيين يهربون باضطراب عظيم أمام معسكر الجيوش التركية النظامية التي أرسلت لإعادة النظام ولم تنفك طيلة مدة الحوادث ساكنة ترأقب بفرح جميع أنواع الاضطرابات. كما كان فرسانها الأتراك غير النظاميين يتصدون للفارين المساكين فيجرحونهم ويسلبونهم حتى أنهم كانوا يجردون النساء اللواتي تركهن الدروز من ملابسهن. وقد كان سلوك الأتراك شائناً إلى درجة جعلت المارونيين يُصرّحون: «بأنهم يفضلون أن يفتك بهم الدروز من أن يحميهم الأتراك».

والآن ظهر جلياً أن المحاولة الأولى التي جربها البطريك وأنصاره ليجدوا لهم نفوذاً في لبنان بإضعاف الدروز، إن لم يكن بالقضاء عليهم كانت فاشلة. وهكذا فان وشاياتهم.

وعربداتهم الفارغة ظهرت جلياً وخطتهم الهوجاء غير الحكيمة للتوسع والتعاضم تلاشت تماماً وإناء غضبهم الذين أعدوه للدروز انصبّ بهول على رؤوسهم وكل مرارة قلوبهم تلاشت مع زفرائهم دون ثمرة ولم يبق لهم من كل سمومهم إلا الابرة. أما للأتراك فقد كان كل هذا الغليان بأقبح النزعات البشرية المستخدمة في نزاع مدني عطراً لرائحة تضحية ذكية إنهم كانوا يمدّدون أمد النزاع المحقون لغاية في نفوسهم وكانوا يرون أنهم خلال هذه المجازر الدموية فقط يتمكنون من توطيد حكمهم المباشر على لبنان إنهم رأوا في مسيحيي لبنان جذوة الخيانة والاستقواء الدائم بالقوة الأجنبية التي تمكنهم تدريجياً من تقديم اقتراحات جديدة للحصول على حقوق جديدة وفي النهاية إلى التمتع ربما، باستقلال مغاير وخطر على مصالحهم السياسية.

وفضلاً عن المقت الداخلي للمسيحية فالأتراك كانوا يلاحظون أن العنصر المسيحي هو من دون العناصر الموجودة تحت سلطانهم، الوحيد الذي تظهر منه حيوية خطره. ولهذا السبب فانهم يتربصون بعيني الفهد كل ناحية من نواحي امبراطوريتهم حيث تكون الحالة مهددة قلقه فيثيرون الاضطرابات فيها في الحالات الموافقة فوق العادة ولولا أن العناصر المسيحية في لبنان قويت واستقرت وتقدمت - الحالة التي يمكن أن يصل إليها فقط بمساعدة وحماية الولايات المسيحية - لكان مركز الأتراك وهم الدولة الحاكمة ذات الصلاحية يتأثر مادياً في سوريا نفسها ولكانت القبائل المجاورة تستيقظ تدريجياً من خمول الأجيال المزمنة.

وهكذا فقد كانت الغاية الوحيدة أو بالأحرى الأهم التي وضعها الأتراك نصب أعينهم في السنوات الأخيرة في لبنان، تحت التعرض إلى أي خطر وبأي واسطة، مها كانت فطية، أن يخفضوا شأن كل عنصر يظهر أنه مصحوب بمثل هذه المظاهر الخطرة. ويقطعوا، كما في الواقع، عند الحاجة «ومع الأسف أن يكون هذا التعبير محزناً في معناه» السرطان الذي كما يرونه هم يهددهم بالامتداد إلى صميم أعضائهم الحسية. هذا هو مفتاح سياستهم الاجالية ومع اعتباره أساساً فإن كل أعمالهم التي تلت وكانت مغايرة ومضادة للشعور الاخلاقي كان جزاءً متمماً شفافاً. إن الحاكم المسيحي في لبنان عزل بالقوة وكان هذا للأتراك انتصاراً طبعياً لأنهم تنفيذاً لغاياتهم بالحصول على سلطة الحكم المباشر في لبنان أثاروا الدروز ضد المسيحيين وشجعوا المسيحيين في رغبتهم للتحرر من هؤلاء

الأخر. ومما يدل على معرفتهم التامة بكل حركات الدروز تصريح السرعسكر. «انه عرف أن الدروز عازمين على مهاجمة دير القمر قبل الحادثة بأربعة عشر يوماً».

وبالرغم من نصائح وملاحظات القناصل الأوروبيين فان أصحاب النفوذ الأتراك لم يعملوا أقل تدبير لوقف المنازعات العدائية أو لمعاينة أولئك الذين كانوا مسببين. أجل لقد أبدت الأسفات بجرارة، وقطعت الوعود وأمرت الفرق بالتقدم إلى مراكز معينة ولكنهم لن يقوموا بأي عمل يمنع فئة من مهاجمة فئة أخرى فهناك قرى كثيرة أحرقت بأسرها أمام أعينهم بل وأكثر من ذلك أن السرعسكر إظهاراً لحياضه العام المجرم أرسل خمسة جمال محملة ذخيرة إلى مراكز المارونيين الرئيسية وهكذا أمدوهم بأعداد تساعد على استمرار الحرب. وفي اليوم التالي، إخفاءً لهذا التظاهر أرسل لهم أمراً بوجوب عقد صلح مع أخصامهم ولو كان يتحمل أقصى العقوبات والدروز أيضاً استلموا في الوقت نفسه كميات من الذخائر من نفق المركز.

وإذا كان هذا هو تصرف الأتراك في ولاية بيروت فقد كان في دمشق تصرفهم أكثر قبحاً واستفزازاً. فان نجيب باشا وهو أقبح نموذج للأتراك السفاحين المنافقين المتعصبين بدأ منذ وصوله بإثارة وإحياء التعصب المحمدي.

وفي علاقاته مع لبنان الشرقي، الذي كان ضمن حدود صلاحيته، لم يرَ من اللزوم أن يشتغل من وراء القناع. ومع أن المسيحيين في تلك المقاطعة كلهم روم ولا علاقة لهم بالبتة مع المارونيين في لبنان ولم يظهروا مرة واحدة قابلية للاخلال بالأمن فقد جعلهم يشعرون بعبء اضطهاد مدروس. انه ألقى القبض على الأمير سعد الدين شهاب الحاكم المحمدي في جريتا عاصمتهم وحبس جريمته الوحيدة وهي اعتداله وانسانيته مستبدلاً إياه بالزعيم الدرزي الشهير شبلي العريان الذي كان طيلة ذلك الوقت على رأس القوة التي قاومت ابراهيم باشا. وأول أعماله الرسمية حسب التعليمات السرية كانت تجريد المسيحيين من كل قوة، رداً على التعهدات التي قطعها لهم الباب العالي بواسطة الحكومة الانكليزية: بإلقاء القبض على رجالهم أصحاب النفوذ وتوزيع كميات كبيرة من البارود على الدروز.

وبعد أخذ بعض التدابير الأولية تقدم شبلي العريان على رأس خمسمائة فارس من الأتراك وبضعة آلاف من الدروز يتقدمهم مشايخهم لمهاجمة بلدة زحلة الواقعة على حضيض أحد سفوح لبنان الشرقية المطلة على وادي البقاع المخصب «سوريا المنهدمة»

وفي طريقه إليها أحرق ودمر عدداً من القرى المسيحية المسالمة وقد ميّز سعيد بك جنبلاط نفسه في غزوته بمهاجمة قرية صغين وقتله مائتين وعشرة من الرجال والنساء .

وقد تقدم ثانية القناصل الأوروبيون جملة عند سماعهم بهذه الحوادث يحاولون باعتراضاتهم الملحة تغيير حالة الاضطراب المخيفة التي كانت بلا ريب تهدّد كل طوائف المسيحيين في لبنان والشعوب المسيحية في سوريا بدون تفرقة وكانوا مواجهين كالعادة بتجاهل واستغراب مصطنعين ولكن أخيراً ظهر عزم الأتراك على كف كل مظهر من مظاهر القوة في صفوف المسيحيين وذلك عندما شعروا أن موقفهم أمام هذه « الاعتراضات المضحكة » - مضحكة بل أكثر حقارة ومذلة من ذلك - التي تقدم بها ممثلو الدول الأوروبية الخمس إذ قد يكون هؤلاء مكلفين ومفوضين من ملوكهم بالوقوف بين الأتراك وفريستهم العزلاء . فكان يجب أن يضعوا حداً لهذه الحالة ويجبرونهم عندئذ على الوقوف مع صفوف المتفرجين الذين لا حول لهم ولا طول أمام غضبة قوية دائمة ضد إيمانهم العام .

وكلمهم في الواقع ، أشعروا وصرّح لهم أنهم كانوا يقاومون بلا جدوى خطة مرسومة ومقررة صادرة عن القسطنطينية وحدها وأن مندوبي السلطان في سوريا لم يكونوا يتصرفون هكذا لو لم يكونوا مفوضين بذلك بتعليمات سرية من الباب العالي وهذا استنتاج مؤيد بكتاب مصادر كان نجيب باشا قد بعث به إلى السر عسكرو . ينبّه فيه هذا الأخير : « لا إلى الاضطراب نفسه بل أن كل ما حدث في لبنان وما حدث ويحدث هناك كان بملء رغبة الباب العالي » .

أما مهاجمة الدروز لرحلة فقد كانت لحسن الحظ فاشلة ولولا ذلك لكان المسيحيون هناك جربوا بلا ريب قسوة الدروز ومخادعة الأتراك فرشيد باشا الذي أمر بالتقدم لمنع المعركة آخر تقدمه عن قصد ليعطي الدروز فرصة كافية بينما لجأ تابعه الذي تعهد للمسيحيين بالحماية التامة لقاء تسليم أسلحتهم ، إلى الذهاب إلى مخيم الدروز لمرافقتهم في اليوم التالي في هجومهم الفاشل . وهذه الحوادث السريعة لانتصارات الدروز المشجعة والمعاضدة من الأتراك سببت انفجاراً شاملاً للتعصب المحمدي ضد المسيحيين في كل سوريا ففي المدن الكبيرة كانوا ينتظرون ثورة عامة والمسيحيون الوطنيون كانوا يهانون ويضربون ويطرحون إلى الأرض في الأسواق وهكذا رست الدوائر الانكليزية على

شواطئ المدن لتطمئن الرعايا الخائفين وأن عائلات عديدة هربت من الداخل إلى الشواطئ خائفة مذعورة . وفي عدد كبير من القرى المجاورة لدمشق أحرق الأتراك الكنائس وهدموها وهددوا المسيحيين بقتل الرجال وبيع النساء والأولاد عبيداً وفي دمشق نفسها شجع المحمديون بواسطة هذه الحوادث المتكررة للمناداة مطالبين بهدم الكنائس التي بنيت بدون موافقة السلطان أثناء الاحتلال المصري كما جاهرُوا بأن الوقت لتقييد غير المحمديين بجميع بنود اتفاقية عمر بن الخطاب الشهيرة حان ورفعت المعارض للمطالبة بتغيير كل الموظفين المصريين وأخيراً وقد حرصوا سرّاً من نجيب باشا بدأوا يتحدثون عموماً بمذبة عامة للمسيحيين وفي وسط هذه المخاوف التي استولت على المسيحيين عامة ثبت لهم أن الباشا كان يتهيأ لمرافقة الحجاج الذاهبين إلى مكة حتى حوران . ورأى مستر وود قنصل صاحبة الجلالة حالاً أن هذا تدبير بارع منه للتخلص من المسؤولية في كل ما يمكن أن يحدث من الاضطراب في غيابه . فواجه في أول الأمر العلماء واستطاع بنفوذه الشخصي فقط أن يجعلهم يوافقون على استعمال سلطتهم ليمنعوا هذا الكره الديني المتزايد ساعة بعد ساعة ثم ذهب إلى الباشا فتقابل وإياه ونبهه إلى الخطر العظيم الذي يمكن أن تجره هول الحوادث على الامبراطورية نفسها إذا بقي مثابراً على تصرفاته الحاضرة وتوسل إليه في وجوب البقاء في مركزه . وهكذا غلب التعصب المزمّن على أمره فأصدر الباشا ، بعد استيقاظه من هذه الغفلة الخلقية ، أوامره لضمان الهدوء العام وهكذا همدت الموجة الدموية .

الفصل الثالث

- ١٨٤٢ عمر باشا حاكم على لبنان - انتفاضة الدروز -
- شبلي العريان - اول كانون الثاني - يناير سنة ١٨٤٢ -
- انكسار الدروز - الدروز والقائمقامين المسيحيين -
- كانون الثاني يناير ١٨٤٥ سعيد بك جنبلاط - هجوم
- الموارنة على الدروز - اندحار المسيحيين.

الفصل الثالث

اخذت من لبنان كله نيران الحرب الأهلية تدريجياً وهكذا انتهى النزاع الذي نتج في باديء أمره عن جشع وتعصب البطريك المتطرف واشترك فيه الذروز غاضبين لقوميتهم ومدفوع بها الى الغليان بواسطة الاتراك الذي يستولي عليهم الوجل والارتعاش لاقل خفوق ينبض به القلب المسيحي.

وان النتائج المباشرة اسفرت عن خسارة ثلاثة آلاف من الارواح وتخريب ممتلكات تعدل قيمتها بنصف مليون من الليرات تقريباً. بل فقد كانت اشد ايلاماً من ذلك بتركها في صدور الفئتين المتعاديتين بذور العداء التي يمكن ان تثار في المستقبل لاستئناف نشاطها المميت، تنفيذاً لسياسة اسيادهم المشتركين. والمسيحيون التمسوا بدون جدوى تعويضاً معادلاً لخسائرهم. فالحكام الاتراك لم يهتموا للضغط على الذروز لاعادة المنهوبات التي كان لهم فيها النصيب الاوفر. ومع انهم كانوا يبحثون باهتمام مع القناصل الاوروبيين بضرورة اعادة المنهوبات وحتى بالمعاقبة فانهم كانوا ادهى من ان يتخذوا التدابير الحازمة ضد طائفة اسدت اليهم خدمات جليلة.

على الاثر جرّد الامير بشير قاسم من وظيفته بتحقيق وارسل مخفوراً إلى القسطنطينية وفي الخامس عشر من كانون الثاني سنة ١٨٤٢ عين عمر باشا حاكماً على لبنان. وحوالي المدة نفسها وصل مصطفى الى بيروت كمندوب فوق العادة من قبل الباب العالي للتحقيق في اسباب الفوضى الاخيرة واتخاذ التدابير لاعادة النظام. وإن اختياراً اسوأ من هذا لم يكن بالامكان عمله. فقد ظهر حالاً ان غايته الوحيدة كانت اذكاء نار الفتنة المحزنة التي كانت موجودة واثارة شعور الطوائف المحمدية بشكل يزيد، عشرة اضعاف في قوة الكره العادي للمسيحيين.

لا ريب أنه كان يعمل بموجب تعليماته السرية. فامام الباب العالي تنفيذ نقطة هامة هي.

من مصالحه الخاصة. وقد انتخبه، اياه، اداة مناسبة وتوصلاً لتنفيذ تلك النقطة كان من الضروري ان يتظاهر المسيحيون انفسهم بالرغبة لان يتولى الحكم عليهم تركي. هذه كانت مهمة مصطفى باشا وبناء على ذلك، أخبر المسيحيون بان لهم الحرية التامة في اظهار رغبتهم عن طريق الالتماس، في من هو الحاكم الذي يرغبون في ان يولى على لبنان. وطلب أيضاً من الدروز ممارسة نفس هذا الامتياز أما الحق الذي منح على هذا الشكل من كرم الاخلاق، فقد كان يجب ان يقاس ويحول ليصبح مساعداً على ترويج السياسة التركية. اكان ذلك عن طريق الرشوة والتزوير ام عن طريق التهديد والتحويل. فصوت الرأي العام يجب أن يخلق بلا رحمة.

ولو كان المسيحيون حتى والدروز مطلقين حقيقة في اختيارهم لما كان هنالك شك بأن الشهابيين استعادوا قوتهم. فإن عدداً من مشايخ الدروز حلفاء الامير بشير الكبير القدماء كانوا صوتوا بجانبهم غير أن العمال الاتراك انما ارسلوا بين الناس، ليمنعوا، اذا كان في الامكان، تحقيق هذه الامور. وهكذا فبفعل الرشوة وتحت تأثير الخوف استميل الارستقراطيون المسيحيون جماعات جماعات، بهدايا عادية كفراء وشالات مرفوقة بمواعيد بتوظيف وحظوة، وهكذا متنازلين عن انفع مصالحهم ومتناسين تماماً اختبارهم القديم، والحوادث المستقبلية استميلوا ليصوتوا بالسيادة الدائمة عليهم لنفس هؤلاء الذين كانوا منذ شهر قصير يسكرون بدمائهم ويطاؤون على ديارنتهم.

فالامير الماروني بشير احمد ابو اللمع استميل الى ناحية الأتراك بمنحة كبيرة من الأرض ومبلغ وافر من المال وبدأ يعمل كآله في يدهم في باديء الامر. ولكنه بعدئذ كان عليه أن يعمل في مجال افسح ولنتائج معادلة في نسبتها لعرقلة مصالح طائفته.

وحيث كانت تفشل الرشوة في تأدية عملها كان التهديد واللحم وكل اغماذج الاهانة الشخصية تستعمل وتتكرس على المسيحيين التعتيسين يجبرونهم على التصويت لحاكم تركي حتى أن عدداً كبيراً في ذلك الحين مات من تأثير ضرب العصا بصورة وحشية. في تلك الاثناء وصل إلى بيروت فيلق مؤلف من الفين الباني وهم من اشد الاشرار الفوضويين، الشرسين، المستبدين الذين لا يمكن ان تجمعهم جامعة ما. ثم همس في الجبل بأن هذه الاوثة ستعسكر في قرى المسيحيين. فأخذ المارونيون يتخوفون لانتهاك حرمة بيوتهم وأستباحة نساءهم وتشريد اولادهم ونهب ممتلكاتهم. وهكذا انتشر الرعب واصبح عاماً فأمدت

مئات الايدي المرتجفة بعرائض التماس للسلطان يلتمسون فيها من لطفه وعطفه ان يسمح لهم بأن يكونوا تحت حكم احد الباشوات الاتراك. هذه كانت المقدمات وهذه كانت رحمة الاتراك.

ومع ان الامير بشير قاسم صرف من وظيفته بحق لعدم اهليته لحمل مسؤولية المهمة التي رفع اليها بأنه لم يكن هنالك من ريب بأن المعاملة الخشنة الوحشية التي تعرض اليها في النتيجة، ونفيه العاجل كانت اسبابها الميل لمعاقبته لأنه توصل الى وظيفته تلك بواسطة الحكومة الأنكليزية ولمنفعتها وأنه توصل الى الحكومة تلك ان تحميه وتساعده. ومصطفى باشا في الواقع لم يتردد في اظهار اعتقاده بأنه ما دام يحكم لبنان حاكم مسيحي فهو سيميل كلياً او جزئياً الى دولة أجنبية وأن المندوبين الأجانب يجدون واسطة للتدخل في شؤونهم، ليس فقط لحمله على اساءة الظن بالباب العالي بل أيضاً وبالسكان انفسهم. وذلك فقط يعني أنه اذا كان لبنان تحت ادارة مسيحية منظمة فلن يتمكن الاتراك، من سحقه تحت اقدامهم الحديدية لرغبتهم الشديدة ولذتهم في ذلك. وأنه في الواقع، وعلى اشد ما يكون وضوحاً وليس على اقل من ذلك صدقاً وايلاماً. ان الاتراك مع انهم مدينون باعادة دولتهم في سوريا، على الاعم والاخص إلى اجتهاد الدول المسيحية، وهي حادثة تثير في الصدور الاعتيادية بعض الشعور بالإعتراف بالجميل. فإنهم سرعان ما تهبأوا لتوجيه كل اجتهداتهم لمقاومة كل نوع من التدخل الاوروي في كل البلاد وعلى الاخص في لبنان. بتخويف كل الزعماء الوطنيين من ايجاد علاقة بينهم وبين المندوبين الاوروبيين فألغوا كل الوعود التي قطعت سابقاً وابطلوا كل الامتيازات والتساهل التي كانت ممنوحة لأهل لبنان، بتدخلهم الرسمي.

واحسن طريقة لتنفيذ مقاصدهم في هذا المعنى، وهذا مكر طبيعي فيهم، كانت أنهم يثبون الاشاعات بأنهم مهددون بغزوة احدى الدول المسيحية لممتلكاتهم، ويشيرون الى تجنيد عام وهبة واحدة لكل اتباع النبي الحقيقيين لصد غزوات الكفار.

بذروا بذور التعصب المحقون لكل شيء مسيحي بين طبقات المسلمين المنحطة. كما انهم تزلفوا كثيراً للعلماء والمشايخ المتدينين بتشريبهم روح الاحتقار للفرنج وجذبهم اليهم بكل الوسائل التي كانت ضمن دائرة تأثيرهم وتمنياتهم بالحماية والمكافأة. فيسحقون بلا شفقة كل الذين يشملهم عطف الاوروبيين ويتمسكون بأفتخار بكل الذين

يعاكسونهم.

ولعلمهم بأن الانكليز هم اخر من يتركهم فإنهم كانوا يجدون سروراً خفياً في تعيين قناصل انكليزيين اهدافاً لإهانتهم، وكانوا يهملون، عمداً، حماية مصالح الانكليز، بدون مبرر ليظهروا بفخر انهم مستقلين تماماً عن كل نفوذ خارجي بأمثال هذه الاساليب كانوا يكسبون ثقة السكان المسلمين ويشجعونهم على التظاهر بكبريائهم وصلفهم وقمتهم في تصرفهم نحو غيرالمحمدين. فهذه هي السياسة اللازمة الثابتة عند الاتراك. انها السياسة الوحيدة، بالرغم من اي اغراء يدعوهم لنهج خطة موافقة لسياستهم؛ التي يتبعونها، لأنهم في عمهمم الابدي، يعتبرونها ضرورية لسيادة عنصرهم، وفي النتيجة، أنه من المنتظر بكل ما في الحقيقة وحواشيها من التأكيد المتتابع بأنهم عندما يقطعون وعداً للدول الأوروبية أو يتقيدون بأي عهد لتحسين حالة المسيحيين في جميع امبراطوريتهم يبادرون حالاً إلى اثاره تيار معاكس فيثرون الغيرة الدينية في ابناء دينهم بشكل يجعل تحقيق هذه الوعود، أو تنفيذ هذه التعهدات مستحيلاً تماماً، إلا في حالة المخاطرة باثارة التعصب المحمدي الذي يعرض للخطر ارواح وممتلكات نفس المجموع الذي يتعهدون بترقيته وتحسينه وهنا يستعمل تصريحهم المشهور بأن «الاتراك لا يستطيعون اعادة مركزهم المفقود ونفوذهم بدون رجوعهم الى التعصب الديني».

وجد عمر باشا موقفه في دير القمر محاطاً بالصعوبات فمشايخ الدروز فرحين بانتصارهم تصرفوا تصرف المستقل فثبتوا سيادتهم الاقطاعية على المسيحيين وانكروا على أي كان الحق في التدخل بينهم وفي مناسبات عديدة كانوا يتعدون ويسئون الى المسيحيين الذين على الاخص كانوا مضرين لهم وعندما كان هؤلاء يتقدمون الى الباشا بالتاساتهم يسألونه فيها وضعهم تحت حمايته وانصافهم؛ كانوا يعتبرون هذا اهانة ويقولون «ماذا؟ لقد حاربنا لأجل الاتراك وأنصرنا وقدمنا لهم رشوات هائلة وأعطيناهم حصص كبرى من النهب فهل نقهر الآن بنفس القوة التي اوجدناها؟»

ثم صرحوا فيما بعد انه «إذا جرت أية محاولة تجبرهم على التصرف نحو المسيحيين تصرفاً مخالفاً وعلى اعطاء الاملاك والأرض التي ربحوها وأخذوها منهم فإنهم سيفضحون حالاً اسرار العلاقات التي كانت دائماً موجودة بينهم وبين الاتراك».

وكانت طلبات الدروز مهددة الى درجة أن عمر باشا شعر بضرورة تقوية الجيش

لتثبيت سلطته. ولكن السرعسکر رفض اقتراحه من اجل هذه الغاية بجواب تهكمي يقول فيه أنه كافر وخائن لأخلافه مع الدروز بيد أن التعليمات التي تلت ارشده إلى اتخاذ تدابير سريعة لإيقاف حركة كانت على وشك التطور الى ثورة وبناء عليه ففي ٦ نيسان دعا خمسة من المشايخ الزعماء الى الغداء وبعد ان انتهى الطعام طوقهم واسرهم. وفي الليلة نفسها ارسلهم مخفورين إلى صيدا. إن هذا العمل المشتمل على خيانه وقوة اجري ليظهر غايتين:

١ - ليري الدول الأوروبية ان الحكم التركي يستطيع ان يجعل نفسه محترماً فيخشوه.

٢ - ليحدث رعباً مفيداً في الارستقراطية الجبلية، الدرزية والمسيحية معاً ملجوءاً إليه الان خصوصاً من الحكام الاتراك ليثبتوا اهدافهم بجعل لبنان تحت حكمهم المباشر. لم يكن الدروز بعد بالرغم من الغليان الشديد لالقاء القبض على مشايخهم على استعداد لمهاجمة معسكر عمر باشا في بيت الدين بالقرب من دير القمر، بينما عرض عدد من القادة المارونيين خدماتهم على الاتراك في حالة مهاجمة الدروز لهم. الاخرون كان من المستحيل عليهم أن يتمكنوا من المدافعة عن أنفسهم أمام هذا التآلف.

وهكذا قسم الاتراك الان برغبتهم العادية ونجاحهم المعهود الدروز الى قسمين، وبعد ان رموا الزعماء المذكورين اعلاه في السجن في بيروت اسبلوا على الآخرين نعمة رواتبهم وعطفهم وبما انهم تمكنوا، حتى الساعة، من تلافي الخطر الدرزي لم يدخروا اي جهد ولم يتوقفوا امام أي تعديل عام ليوجدوا تأييداً عاماً بأن تكون اصوات المجموع في جانبهم على هذا ارسل العملاء الى كل النواحي في الجبل بعرائص مهياة يلتمس فيها وجود حاكم تركي. وقد استطاع هؤلاء بتزلفهم ان يجدوا جماعات يوقعونها تحت تأثير وعودهم وتهديدهم، وجماعات يوقعونها تحت تأثير الضغط والتعذيب.

لم يكن هناك سوى زعيم مسيحي واحد ذي تأثير صدهم بشجاعة واستمال حزباً لا بأس به، وقد كان أنهم باتباعهم مثل هذا الاكراه، اثاروا بين المارونيين روح استياء جعلتهم يفاجئهم بأضطرابات جديدة. عجزت معها الجيوش التي ارسلت لألقاء القبض عليه في حصون بشري إذ هوجت من قبل الجبلين ومنيت بأندحار معيب وخسائر كبيرة بالارواح. عن تحقيق مهمتها.

ولما رأى الدروز ان الفرصة سانحة دخلوا في مفاوضات مع المارونيين ليتوصلوا الى ثورة عامة ضد الحكومة ولو أن مبدأ الوطنية الطبيعي كان مسيطراً في هذه المحاولات للتصالح، بل لأصلح ما يمكن عمله لمقاومة عدو مشترك لكانت القوة التركية اضطرت هي أيضاً إلى التساهل. ولكن الحس الطبيعي، وفقدان الثقة، جعل كل هذه المحاولات من الطرفين تفشل. فالدروز وعدوا بأن يكونوا إلى جانب الشهابيين شريطة أن يبدأ المارونيون الحركة الثورية. والمسيحيون اشترطوا على الدروز بأن يضربوا الضربة الاولى ويقدموا وثيقة خطية موهورة بامضاءات مشايخهم الزعماء يطلبون فيها شهادياً، كفالة لحسن نيتهم، تدفع إلى الاتراك في حالة تخليهم عنهم أو خيانتهم لهم. وهنا ثار نوع من النزاع بينهم لم يكن من الامكان حله. إذ كانت كل فئة تسيء الظن بحسن نوايا الفئة الأخرى.

كان الاتراك، في الوقت نفسه متيقظين تماماً لأحباط هذا الاتفاق المشؤوم فلم يضيّعوا اي وقت في استعمال جميع الضربات التي اعتادوها في استمالة المارونيين وعلى الأثر صدر امر وزاري - يضع البطريك تحت حمايته ويعفي عن بعض الزعماء المسجونين بسبب رفضهم تقديم التماس بتنصيب حاكم تركي، ويعددهم بأعادة الممتلكات التي نهبا الدروز، واعطاء سيف لواحد، وشال لآخر او ساعة وبعض مئات من القروش لثالث - كان كافياً لتلطيف الاستياء الماروني والقضاء على الحملة المهددة.

هذه هي الطريقة التي تمكن بواسطتها الاتراك ابدأ من الاحتفاظ بقوتهم. ليس بتوطيد سيادتهم، كما يتوجب على الحكومة القانونية. ولكن بالتلاعب واثارة قبح نواحي الطبيعة البشرية كأثارة طائفة ضد طائفة، وإيجاد حزب آخر، بالرشوة والمكايد في الطائفة نفسها. وبارشاء الساقطين ليخونوا اقرباءهم، وديانتهم، وبلادهم ويقطع كل الروابط التي توجد الثقة والمسرة في بني الانسان.

وبهذه الصورة جاهدوا اشهرا قلائل لأحباط المؤتمرات التي كانت تهدد مركزهم المؤقت. واخيراً وصل التصبر الدرزي الى حدوده؛ فقرروا أن يخلعوا رداء حقارتهم للاتراك - مع أنهم كانوا منفردين، وهنا ظهر الان زعيمهم المشهور شبلي العريان قائداً لهم وفي نهاية تشرين الثاني سنة ١٨٤٢ زحف تحت قيادته آلاف منهم الى بيت الدين حيث احتلوا الهضاب المجاورة، وقطعوا مجاري المياه وحاصروا الفيلق التركي الذي كان على راسه عمر باشا بنفسه. والدروز بانتصارهم على مفرزة من الاتراك تشجعوا وتمسكوا

بمطاليهم فالحوا في طلب اطلاق سراح مشايخهم وصرف عمر باشا من وظيفته حالاً واعفائهم من قانون نزع السلاح.

وفي المفاوضات التي جرت اخبرهم الحكام الاتراك ان السبب الوحيد في التصرفات الاخيرة كان تمنعهم عن دفع التعويضات التي يطالب بها المسيحيون عالياً. وهذه حجة بارعة قصد منها غسل هذا الكره العام عن انفسهم من جراء هذا الطلب. وشبلي العريان لم يتجنب أو يتحاشى الامر بل ارجع الضربة الى الاتراك فصرخ بجرأة ان على الاتراك وحدهم أن يدفعوا هذه التعويضات، لأنهم في السنة الماضية وتحت تأثير الوعد بالمكافآت اغروا الدروز بالانقضاء على المسيحيين ولأن الدروز انفقوا فعلاً ٣٠٠ ٠٠٠ ليرة في رشوات لموظفي الباب العالي في سوريا ومن جعلتهم الوزير الكبير نفسه في القسطنطينية. اراد الاتراك الان وقد اهينوا، ان يوطدوا سلطتهم ففعلوا وكانت لحسن حظهم حركتهم ناجحة.

فزحف جيش من الاتراك والالباينيين مع مدافعهم باتجاه دير القمر من صيدا وهاجوا القوى الدرزية من الورا، بينما صادمهم عمر باشا بجيشه وعدد كبير من الفرسان المارونيين بقيادة زعمائهم، من الامام. وبعد مقاومة عدة ساعات انسحبوا بجرأة وتمهل وتفرقوا في عدة جهات. فهرب مشايخهم الزعماء الى جهات حوران. بينما استسلم شبلي العريان، يائساً لمخالفة الحظ له والمفاجأة غير المنتظرة لوالي دمشق ولكن ليس بدون أن يكون قد تعرض الى تهمة قوية بأنه ارتشى ليخون ابناء بلاده ويهمل قضيتهم.

والباب العالي تخوفاً من الحملات التي كانت تصل اليه من كل الجهات من سوء التدبير الحاصل في لبنان، ويكون غير مستعد لمقاومة ما كان يظهر انه استعداد للقيام بثورة عامة. وجد نفسه اخيراً مضطراً لمسايرة الظروف. فقرر نهائياً أن يكون من الطائفتين حاكم من مذهبها وقوميتها. وفي اليوم الاول من كانون الثاني سنة ١٨٤٣ عين الامير حيدر ابي اللمع والامير احمد ارسلان قائم مقامين للمسيحيين والدروز بالتتابع.

وهذا الحل العادل الوافي حسب ظاهره لهذه القضية المزعجة كان فقط مثيراً لصعوبات اعظم وارتيابك جديد. فلو ان جميع المسيحيين كانوا مقيمين في ناحية واحدة من الجبل، وجميع الدروز في ناحية اخرى ضمن حدود معينة لكان هذا الحل قابل التنفيذ بقدر ما كان سهلاً. ولكن الآلاف من المسيحيين الروم والمارونيين كانوا يعيشون في مقاطعات

الدروز كخدم اقطاعيين لمشايخ الدروز الذين كانوا يمارسون هذا الحق عليهم بالأثر من والد إلى ولد منذ اجيال. والحكم المباشر من الحاكم المسيحي على المسيحيين باستعمال سلطته عليهم ايما كانوا مقيمين، يقضي على هذا الحق، ويستأصل هذه الامتيازات التي يعتبرها الدروز من دعائم قوتهم. وفي الحقيقة فقد كانت المحاولة هذه هي نفس المحاولة، التي جربها البطريك، في السنة الماضية وكانت سبباً للحرب الاهلية. اما المارونيون، المقيمون بين الدروز فقد نظروا إلى هذا الانقلاب نظرة مخالفة فأعتبروا الامر محاولة لتخليصهم من الاسر الدرزي.

وهكذا خلق مصدر جديد لتجديد الكره الكاوي والعداء بين الطائفتين بيد أنه كان واضحاً ان المسيحيين الروم رفضوا بشدة قبول هذه النعمة وصرحوا بأنهم يفضلون حكم الدروز عليهم. وهكذا كذبوا تأكيد المارونيين المتكرر بأن المسيحيين لا يكونون مسرورين تحت سلطة الدروز، وانهم يفضلون الموت على الخضوع لظلمهم الشديد. والحقيقة كانت، ان المسيحيين الروم وجدوا ملجأ في كنف زعماء الدروز من التعصب الشرس واضطهاد البطريك الماروني واساقفته الذين منذ ان اعتنق الشهابيون مذهب الروم الكاثوليك جعلوا العضو الحاكم من تلك العائلة الة في ايديهم لنشر وتوسيع نظرياتهم الدينية وسلطتهم على لبنان كله ومع ان القائمين مقام المسيحي المعين من جديد لم يكن شهابياً فانه كان، مارونياً مجتهداً بلا ريب لنفس النفوذ. هذا كان يعرفه المسيحيون الروم فكانوا يتخوفون من اوامر بطريركية جديدة يجعل بواسطتها حقوقهم الدينية والزمينة، لا مهمة فحسب، بل مرماة جانباً بلا رحمة. فممتلكات اديرتهم أخذت منهم بحجج منمقة، وعملية ادخلهم في الدين كانت تجري بوسائط غير لائقة من تخويف وإتلاف في الممتلكات والاموال. ولم تكن لتتوقف إلا عند الاعتراف بالكتلكة. واذا كانت السلطة المارونية تعامل المسيحيين هكذا. فهل من الغرابة ان تكون وقعتها على الدروز شديدة الوطأة! أن هذا التفضيل من قبل الروم هو حقيقة هامة ومفيدة. انها تبرهن ان الدروز لم يستعملوا قوتهم وبأسهم ضد المسيحية بل ضد الجشع والغرور الماروني وأهداف التوسع الكهنوتي العنيف.

اسبوع بعد اسبوع وشهر تلو شهر مرت في محاولات فاشلة لايجاد وضعية عامة تخرج فيها فروقات الطائفتين. فلا واحدة منها كانت تتنازل عن حقوقها أو ادعاءاتها،

والدروز رفضوا بعناد طبيعي قبول تدبير يقدرهم بوضوح انه سينقص نهائياً كياناتهم السياسي الى ضعف محتم وكسر معنوية. والمارونيون مدفعون من قبل الاكلروس جاهدوا بشدة ضغط النير الدرزي وحرصوا بتقريرهم على عدم الرضوخ له ثانية.

فالمفاوضات والمؤتمرات التي كانت تعقد بحضور الحكام الاتراك والتعهدات بالمراقبة والحماية من قبل الدول الاوروبية والاقتراحات المعاكسة والفرضيات بأن المارونيين المقيمين بين الدروز تتوفر لهم التسهيلات اللازمة للمهاجرة، وأن لهم الحق في تعيين مندوبين منهم ليمثلوهم ويراقبوا مصالحهم مع الحكم الدرزي كانت كلها بلا جدوى. واخيراً وقد هاج البطريك الماروني غاضباً مستاءً وارعد مهدداً، «السيادة أما مارونية أو درزية» قال في تصريحه «الواقعة ستقع ومن يضرب الضربة الاولى ينال نصيبين مقابل نصيب واحد» حكمة، مع كونه هو أول من تلفظ بها كنظرية، فقد كان الدروز كالعادة عالمين جيداً كيف يضعوها على حسابه موضع التجربة.

كانت مواد الخلاف كثيرة فأنفجرت من جديد. وكان المارونيون كالسابق، هم البادئين بالاستخفاف وبدأت حوادث القتل واجراءاتها الضرورية تعطي دلائل العاصفة القريبة فتوقفت الاشغال العامة والاعمال الصناعية واعلنت الفتان استعدادهما فارسلا الطلائع كأنهما جيشان يلتحمان في معركة.

استعمل الاتراك سياستهم التي لا تتغير ثانية، مسرورين بتجدد مصائب المسيحيين. ويتصورهم الدائم في شق طريق على اجسامهم الميتة ومنازلهم المهذومة توصلا الى اطماعهم واهدافهم الجشعة. منهمكين باستمرار في استعمال يدهم الخفية للدس منبهين الدروز الى عدم قبول اي شيء من الطلبات الجائرة للمسيحية الوقحة. بينما في الوقت نفسه، بعيدين عن وقف النزاع شجعوا المارونيين كل التشجيع لمهاجمة الدروز بالتصريح لهم بانهم معطون الحرية ليقوموا بذلك.

ولما كان المارونيون قد اعطوا مجالاً واسعاً لاستعداداتهم فانهم لم يتكتموا في تظاهريهم فصرح الشهابيون علناً بأن الاعتماد على السيف امر ثابت. امر مقرر في مجتمعاتهم وممهور بخاتم اليأس. كذلك اعلن المارونيون في المقاطعات المختلطة «لا نقدر أن نعيش مع الدروز ففئة منا يجب ان تضحل او تترك البلاد» بينما زادت استعداداتهم العدائية وتنظيمهم الحربي باسماء عسكرية مع عدم التوقف عن شراء الاسلحة والذخيرة في اثاره

شعور الدروز، الذين كانوا مهتاجين من محاولاتهم السابقة لعدم استقلالهم، ومرارتهم. وفي دير القمر اصدر المجلس البلدي للمارونية اقسى الاوامر لابناء مذهبهم، في عدم المخالطة بصداقة او اي نوع اخر من العلاقات مع الطائفة المعادية وذلك تحت طائلة عقاب الموت للمخالف وقد تشددوا في اوامرهم ففضى الموت على راهب ماروني تعيس لانه كان على صلة مع الزعيم الدرزي سعيد بك جنبلاط. وكذلك كانت ارواح الاخرين الذين عصوا اوامرهم ملاحقة بينما ضرب عدد كبير وجرح. ومثل هذه الاساليب الصارمة اوصلت الى النتيجة المرجوة. ففي وقت قصير لم يعد الشركاء المسيحيون يجسرون مع انهم كانوا يرغبون عكس ذلك سراً، على الاقتراب من اسيادهم الدروز. وفي بعض الاماكن رفضوا دفع المدخول لهم فالكلام مع درزي اصبح مخالفة والتعامل معه كان يعد خيانة.

استلم البطريك الماروني من فرنسا والنمسا مبالغ كبيرة لأجل تغطية الفاقة المزعجة التي وصل اليها المسيحيون في حوادث الحرب الاهلية الماضية. فخصصها مالاً لحرب ثانية وفوض اتباعه الاكليروس بأن يدفعوا لكل محارب اربعة غروش يومياً، ويشترى السلاح والذخيرة انما كان تحصيلها ممكناً لعلهم ان مجموع المارونيين الكبير لن يشترك في حرب لمجرد القضاء على حقوق الدروز السياسية فقط ان المتعصبين منهم في الحقيقة كانوا مقتنعين بأن الحرب الحزبية اصبحت حرباً دينية. فالدروز اعداء الصليب، الكفار يجب ان يُمحوا أو يطردوا من البلاد.

وليس هنالك ادنى شك بأن الاكليروس الماروني كان يأمل أنه بايقاظ اعماق شعور الكره والتعصب الديني في اتباعه يمكن المجموع المسيحي من التمتع بنفوذ في لبنان يتعادل مع قوتهم التي كان العنصر الدرزي يحول دونها. ثم اليس المعقول أن يكونوا وجهوا افكارهم فيما لو نجحوا في خططهم هذه لتحرير المسيحية من عقبة اخرى - الحكم العثماني!!.

عقد اجتماع كبير لكل مشايخ الدروز الرئيسيين - في المختارة مركز سعيد بك جنبلاط حوالي اخر شهر كانون الثاني في سنة ١٨٤٥ مما دل أن الدروز كانوا في حركة. والدروز وإن كانوا في الاوقات العادية قسمين أو حزينين متأثرين بروح الحسد الطبيعية فانهم اوقات الاضطراب الاهلي، تجتمع كلمتهم على زعامة العائلة الجنبلاطية في عقد

المؤتمرات أو في العمل. كان في اوائل القرن الحالي رئيسها الشيخ بشير جنبلاط الحاكم الحقيقي للبنان وكان له من غناه الفاحش وعدد خدمه واتباعه الكبير ليس فقط في طائفته بل ايضاً بين المارونيين ما جعل نفوذه قويا.

لقد تقاسم لمدة طويلة مع الامير بشير الشهابي كل الاعمال الحكومية. ولكنه لما شعر اخيراً بأن هذا الاخير وجه نظره الى رفع مستوى المجموع المسيحي الى مركز يضع السيادة الدرزية المزمنة في خطر وقف ضده في صدام علني. ومع انه قاد الى الميدان عدداً قوياً عديداً واشترك معه في ذلك عدد من زعماء المسيحيين المارونيين واتباعهم، فقد فشل في محاولته، وذلك في الاساس لاشتراك فرقة تركية الى جانب الامير بشير أنجده بها في ذلك الحين الجزار والي عكا. وبعد ان نجا الشيخ بشير من المعركة القي القبض عليه وأخذ اسيراً الى عكا حيث قضى عليه الجزار بالموت.

واولاده الثلاثة الذين كانوا في ذلك الوقت اطفالاً مكثوا في المنفى طيلة المدة التي بقي فيها الامير بشير في الحكم، ولكنهم ارجعوا ليشاهدوا مركز اسلافهم خراباً، وذلك عندما رجعت الحكومة التركية الى مركزها في سنة ١٨٤٠ ونعمان بك الاكبر اعتزل الناس تماماً بعد حرب سنة ١٨٤١ الاهلية بوقت قصير. واسماعيل الاصغر ارسل الى انكلتره ليتعلم ولكنه بعد غياب سنة واحدة فقط رجع مختل الشعور تماماً ومات بعد بضع سنين مصاباً بجنون لا يرجى شفاؤه وهكذا انحصر الاسم والغنى والجاه الجنبلاطي في سعيد بك وحده وهذا الشاب القوي اظهر في الحرب الاخيرة براهين على شجاعته ببروزه في المعارك الدموية؛ صفات اهلته كثيراً لموافقة نزعة الدروز الجريئة القاسية. فضلاً عن أنه استحصل باكراً على عطف بل وحماية رسمية من الحكومة الانكليزية، التي رأت، في قوته وسيادته الفعالتين، وسيلة لأن تؤسس بين الدروز نفوذاً سياسياً يوازن النفوذ الذي لفرنسا مع المارونيين. وهكذا فانقضاء شهرين على ذهاب وايباب الحرس المتواصل والمؤتمرات السرية في الليل وفي النهار والانفاق فوق العادي على الضيافة برهن أن ديوان سعيد بك كان في عمل دائم مستمر.

والمارونيون، من ناحيتهم. عقدوا اجتماعاتهم واصدروا اوامرهم وشجعوا المسيحيين بواسطة مناشيرهم المهيجّة على انتظار ساعة التجربة. وهكذا تقدم الامراء الشهابيون للقيادة بفرح. وجعلوا مركز الاجتماع في عيبه حيث كان على جميع المسيحيين المقيمين في

المقاطعات المختلطة ان يتجمعوا. فقد قرروا القتال والمجازفة بكل الاخطار لاعادة الامير بشير الكبير حاكماً فرداً على الجبل. والاكليروس الماروني دعوا الى الحرب المقدسة في كنائسهم وقادوا قطعانهم بأنفسهم الى اماكن الاجتماع.

اما الدروز، فحسب تدابيرهم الاعتيادية أو بالاحرى استرشاداتهم تظاهروا بأنهم شديدي التخوف من هذه الاستعدادات العدائية فتوسلوا الى الجانب التركي لمنع هذه المصائب الحربية. وقد وافق القناصل الاوروبيون برغبة على هذا الشعور السامي المحمود واجبروا الجيوش التركية على الخروج الى المراكز التي فيها اصطدامات مهددة. أما الاتراك فقد تريثوا بحجة انتظارهم لمفاجأة الحوادث. مظهرين كل رغبتهم واهتمامهم في وقف اراقة الدماء بالتدخل العملي وباستعمال كل سلطتهم المطلقة بدأوا فيما بعد بوضع قواهم في مراكز معينة مزودين بتعليمات تمكنهم من اعطاء مساعدة فعلية وعملية للدروز وسحق المسيحيين، الذين اطلقوا عليهم في اكثر من حادثة واحدة النار الحامية.

وفي شهر نيسان سنة ١٨٤٥ انفجرت العاصفة التي تراكمت مسبباتها بهجوم عمومي من المارونيين على مراكز الدروز ففي مقاطعة الشوف كانوا مقادين بواسطة احد مطارينهم يتقدمهم والصليب بيده بعد ان اخذ الاذن بالهجوم من احد الموظفين الاتراك الذي كان مركزه هناك. وفي اول الامر ساقوا كل شيء امامهم فاحرقوا وهدموا أربع عشرة قرية وتقدموا الى سور المختارة ذاته هنا عقدوا النية على انتصار عظيم، ولكنهم فوجئوا باندحار تام إذ أن فليقا تركيا كان متمركزاً امام قصر سعيد بك استقبلهم بنار حامية من البنادق صدمت بها نفوسهم الثائرة.

وفي عبيه، بعد صدام عنيف، اندحر المسيحيون الذين كانوا بقيادة الامراء الشهابيين اندحاراً تاماً. وحوصر هؤلاء الاخر بشدة في قصورهم، من قبل الدروز. بينما كانت الجيوش التركية تراقب هذا النزاع بعيني المتفرج الهادىء. وسلم الاول في النهاية انفسهم كسجناء وسيقوا الى بيروت بواسطة الكلونيل روز بنفسه. امثال هذه الالتحامات جرت في كل نواحي لبنان بمثل هذه النتائج. فالاتراك اينما وجدوا كانوا يعملون كمساعد احتياطي للدروز. وحينئذ عادت الحكاية القديمة: من قرى ملتهبة، وممتلكات منهوبة، ومسيحيين هاربين يتبعهم الدروز والاتراك غير النظاميين فيسلبونهم ويعذبونهم ويذبحونهم. فأمال المارونيين بالسيادة تشردت في الهواء والمسيحية نفسها خُدت، واهينت وحُقرت.

وُجّهت السياسة الخادقة الى القسطنطينية ثانية لايجاد وسيلة تسحب العناصر الهدامة لهذه الاعصار الوقي المتكون من خيانة الاتراك وفسادهم والطمع الاسقي الماروني، والحدق الدرزي. فأرسل شكيب افندي في مهمة خاصة الى سورية حوالي نهاية سنة ١٨٤٥. وبعد فحص طويل وعدة تحقيقات ركزت الحكومة اللبنانية على ما كان يرجى ان يكون قاعدة اساسية دائمة.

فالنظرية الاساسية لايجاد قائم مقامتين ثبتت واصبح لكل واحدة مجلسها المنفصل حيث كان للطائفتين ممثلون. وفصلت الحدود الجغرافية بين الطائفتين وثبتت الحقوق الاقطاعية للدروز على المسيحيين المقيمين بينهم قانوناً، كما وأنه عين هؤلاء الاخر مندوبون مع كل زعيم درزي حاكم ليصون حقوقهم. فالحكام الاتراك يتعاملون في الجبال مع القائم مقامين فقط، وقوة هؤلاء وحدها كانت مسؤولة عن دفع الضرائب والمتأخرات منها وحفظ الامن.

ولكن المسيحيين في دير القمر، يائسين من الوضعية التي وجدوا انفسهم فيها، من أنهم ممثلون اسماً بواسطة مندوب عنهم، تحت الحكم الفظيع الظالم للشيخ الدرزي ابو نكد ومدفوعين سراً الى هذه الخطوة بواسطة الاتراك، رفعوا عرائض التماس وخضوع يطلبون فيها حاكماً تركياً. والمنحة اعطيت لهم غير أن الاهانة التي وجهت الى هؤلاء الدروز كمنت في اعماق قلوبهم. فانهم لم ينسوها أو يصفحوا عنها. فقد عاشوا سنين عديدة على مرأى من تراث اجدادهم ولكن بعيدين عنها. لقد نظروا اليها تكبر وتنمو وتتقدم حتى اصبحت مجموعاً مسيحياً غنياً زاهراً ولكن ضمن حدودها لم يبق لهم كالسابق مدخل أو نفوذ اقطاعي. ولم يمروا بذلك دون أن يصروا على اسنانهم غير انهم احتملوا ذلك صابرين الى حين.

الفصل الرابع

- ١٨٥٦ المساحة والاحصاء - ازدهار دير القمر -
- زحلة وحاصبيا مدن مسيحية في المقاطعات الدرزية -
- تعنت البطريرك الماروني.

الفصل الرابع

واجه الاتراك الطريقة الجديدة بارتياح جاف وقبول مغتصب. فانهم لم يربحوا شيئاً. أن دسائسهم الفعالة وتدابيرهم الاجرامية عجزت على السواء عن تحقيق غايتهم فلبنان بقي بعيداً عنهم بعده المعتاد. كل البعد، غير اننا بدلاً من تتبع الحوادث المختلفة، ذات الالهمية الكبيرة والصغيرة تلك التي تظهر تاريخ الدروز والمارونيين في السنوات القليلة التالية. تلك التي لا يمكن أن يكون لها تأثير ابعد من تأثيرها المحلي، فسنتقل حالاً الى سنة ١٨٥٦ ومنها نلقي نظرة عامة على الوضع السياسي والاجتماعي الذي تتمتع به الطائفتان.

أن القائمقام المسيحي، نظراً لسمو النوايا التي اظهرها بعدله في احكامه، ارضى عموم ابناء طائفته المسيحيين والمقيمين ضمن نطاق نفوذه من المذاهب الاخرى حتى وفاته في سنة ١٨٥٤. ولكن الاتراك لم يتركوه وشأنه. فقد دفعوا سرّاً الامير بشير ابو اللمع صنيعتهم المجرب المتفوق، ليحاولوا، ضمن نطاق حكمه، قذف المقاطعات المارونية الى حالة اضطراب شديدة وذلك حوالي سنة ١٨٥١.

فالهدوء المستتب والتقدم المطرد للمسيحيين كان مزعجاً لشعورهم وبرهاناً واضحاً على أن دستور شكيب افندي كان ناجحاً. أما رسل الامير فقد كانوا على الغالب يثيرون المشاغبات فيرفعون العرائض ضد القائمقام، ويتظاهرون بشيء من القوة بقطع الطرقات وعرقلة الاجراءات القانونية للموظفين. والاخير رفع امره، بدون ثمرة، إلى الحكام الاتراك لآخذ تدابير حازمة لقمع هذه الروح التي تفسد في ادارته، وبهذا اصبحت قوته وسلطته مهددة جداً.

ولكن، لحسن حظ لبنان وسلامته أن كان لانكلترا سفير في اسطنبول هو اللورد ستراتفورد ده ردكليف Lord Stratford de Redcliffe الذي كان يراقب بعين اليقظ

مصالح لبنان ويعرف، في الوقت نفسه، كيف يجعل الاتراك يحترمونه ويطيعونه وهكذا فقد استطاع بتدخله الحازم القوي الحكيم ان يحبط كل حيلهم، ويشهر كل نواياهم ويحول جميع اعمالهم الى الجهة الصحيحة. وفي مدة قصيرة وجد صوته المؤثر موقفاً في مؤتمرات الاتراك ومجالسهم. وقضى قضاءً طبيعياً على الحركة الموجهة ضد القائمقام.

اما الدروز، فنظراً لقوة بأسهم من جهة، وفي الاساس للمعاوضة المعنوية والمادية التي كانوا ينالونها من الاتراك، تمكنوا من توطيد حقوقهم ودحر الجشع الماروني. فإن قوميتهم أصبحت معتبرة ومصانة وامتيازاتهم الاقطاعية حتى على المسيحيين قانونية. انهم لم يصلوا قبلاً إلى رفعة وسمو اكثر ازدهاراً وتشجيعاً. وحوادث السنوات الاخيرة، من منازعة دائمة مع المسيحيين، تلك التي اشتركوا فيها، والانتصار الذي خرجوا به من هذا الصدام لم يفعل فعلاً غير طبيعي بتعزيز شعورهم وحقدهم الطائفي وتوليده في صدورهم شعوراً بالتفوق في الشدة والشجاعة.

وهكذا، فانهم مع مرور الزمن بدأوا يعاملون المسيحيين الموجودين ضمن دائرة حكمهم بضغط متزايد. والمندوبون الذين كانوا معينين مع الزعماء الدروز ليكونوا مساعدين في الحكم في حالة خصام أو تعدّ بين مسيحيين ودروز وجدوا أنفسهم حالاً مهملين تماماً ومجبرين على الوقوف مكتوفي الايدي امام الظلم والارهاق. وقد بلغ الظلم والتعدي في بعض مشايخ الدروز انهم كانوا يقومون بغزوات الى القرى المسيحية، كما كانت تملى عليهم مخيلتهم فكانوا ينزلون فرسانهم على نفقة السكان ويبقون هناك الى ان يجبي لهم مبلغ معين من المال وكانوا خلال ذلك يأخذون المواشي، وفي حالة المقاومة أو العناد يعرضونهم الى اقصى انواع العقوبة. والنساء المسيحيات لم ينجون من ثقالة الدروز، بينما لم يلجأ الى الاغتصاب ابداً.

كان سعيد بك جنبلاط من جملة الاقطاعيين السلاطين المقتضيين القليلي الذمة. ان تعديه وجشعه غير القانوني كان يشمل اغتصاب، املاك الدروز والمسيحيين على السواء. فمع كاتم سره وعميله الوفي كيس من اختام المسيحيين. كان جاهزاً على الدوام لتسهيل نقل الممتلكات نقلاً قانونياً كاذباً، من مال أو عقار، وعند الحاجة مدافعة عن النفس، لتوقيع شهادات تنعته بالرحمة العامة والانسانية وما كان نزوله السنوي الى البقاع في وقت الحصاد الا غزوة هدامة. فقد كان على الفلاحين المساكين التعيسين أن يقدموا تحت الضغط والقوة

ثلث قمحهم وشعرهم بنصف اثمانها وكانوا مجبرين على نقلها مسخرين الى المختارة. وعند وصولها الى حواصله كانت تكال بطريقة تنقص في سعرها ومقدارها ثم يحسب عليهم العجز الى سنة ثانية بفائدة مضاعفة ومركبة. ولو ان احد المسيحيين نزل ليشكو ظلامته الى الوالي في بيروت لأبطلت هذه الشكوى بهدايا من زيت أو عسل أو تنباك، الى تلك السلطة، من قبل زعمائهم المستبدين. وفي بعض الاحيان كان هؤلاء المساكين يجرون انفسهم الى القنصلية الانكليزية، باعتبارها المحكمة التي يظهر فيها الحق عالياً. ويقضي على الضغط وتظهر العدالة لاعتبار اخر أيضاً هو أن سعيد بك كان تحت الحماية الانكليزية. ولكن سعيد بك كان ذا ادارة قوية ومهمة نظراً لنفوذه السياسي بحيث لا يمكن التدخل معه حتى بصورة عادية. ولو فرض انه كان مؤاخذاً بما كان يعمل من مخالفات، فانه لم تؤخذ، ولا خطوة واحدة، للاختلاف معه وتجريده من الامتياز الرفيع، من هذه العلاقة التي كان يسيء اليها، ولن يسمح بأجراء ملاحقات ما فيما لو اخذت التدابير لاجرائها. وهكذا ففي هذا المركز ايضاً أصبح المسيحيون فريسة لاعتقادهم المخدوع بالحصول على الانصاف، حتى أنهم عند رجوعهم الى بيوتهم لم يكونوا معافين من ان يعترضهم رجال سعيد بك ويضربونهم الى ان يغمى عليهم أو تسيل الدماء من جراحهم البليغة.

ومن المؤكد أن صبر الحكومة الانكليزية على حماية ومناصرة هذا الزعيم الدرزي متغاضية عن مخالفاته، لم يثر غضب المسيحيين العادل فحسب بل كان له تأثير قبيح في الدروز انفسهم. لانه اعطاهم اقصى تقدير خاطيء عن اهميتهم في نظر تلك الحكومة. انه شجع الدروز على التماهي في احتقار المسيحيين كمجموع وفي كرههم. ومن المؤكد الثابت، ما كانوا يجادلون به، من أن الحكومة الانكليزية تفضلنا على غيرنا وان الحكومة الانكليزية، مهما فعلنا، لن تهملنا ولن تضعف شأننا، أما المسيحيون فانهم بلا ريب ذوو اهمية ضئيلة في نظرهم. وقد كان هذا الشعور قوياً، وكانت هذه الطريقة في التفكير موافقاً عليها في الظاهر ومنتشرة بين الدروز بحيث انهم في المذابح الاخيرة كانوا يعتقدون أنهم يقدمون خدمات جليلة للحكومة الانكليزية باستئصال طائفة كهنتها ينعتهم بالهراقة، الماسونيين، الكفار.

ان هذا الكره العام من الدروز نحو المسيحيين الذي يختلف تماماً عن شعورهم نحوهم

في الزمان القديم من تاريخهم لا يمكن نسبته الا الى تلك التحديات المثيرة للشعور، والتي اوجدت هذا التغيير في الاخلاق والتي نتجت عن المضايقات المقصودة والمحاولات المتكررة التي لجأ اليها القادة المارونيون: الزمانيون والروحيون، للقضاء على سلطتهم الاقطاعية واضعاف نفوذهم وهضم حقوقهم ونهائياً التخلص منهم جميعاً. فالامير بشير القديم، الماروني، خلال حكمه القاسي في لبنان فرقههم تقريباً قطعاً صغيرة بعضاً من حديد. ولما حاولوا عند سقوطه تنفس الصعداء وتمنية انفسهم بايام احسن واجههم الماروني ثانية بوجوب الخضوع الى اوامره او تحكيم السيف.

فليس من العجب إذن أن نرى الزعماء الدروز، عندما ثبتوا اقدامهم على القمة التي اوصلهم اليها النظام الجديد: حاكمهم منهم ومن بين صفوفهم، وهم انفسهم في حالة استقلال تام مطلق، وبعيدين حتى عن ظل الحكم المسيحي؛ يتمتعون بتلك النفسية من شدة البأس التي هي خلقية ملازمة لهم، وينغسون في تلك التصرفات التي هي حتى بين الشعوب الاكثر نضوجاً، جليلة الوجود في الحالات التي تكون فيها القوة مطلقة وغير مسؤولة.

ومع صرف النظر عن حرية العمل التامة والحرية المطلقة التي نالها الدروز من المركز الاعلى، فالمسيحيون كانوا يفاخرون ويباهرون ويشيرون الى اكثر من مركز واحد من مراكز القوة والازدهار التي كانت تؤدي الى قبس ينير املهم ويعمل على وقف اعمال الدروز غير القانونية. فالمدينتان زحلة ودير القمر انما بعثها الى عالم الوجود، الامير بشير القديم في القسم الاخير من ايام حياته عندما اصبح في خضوع متزايد بين ايدي الاكليروس، لموازنة سيادة المجموع الدرزي. فدير القمر واقعة في قلب المقاطعة الدرزية على مسافة عشرين ميلاً من بيروت وثمانية عشر ميلاً من صيدا. وقد بنى سرايتها القديمة الامير فخر الدين المعني الذي جعلها مركزاً لحكومته في اول القرن السابع عشر والمعنيون امتلكوا بعقلين بعد ذلك وهي على السفح المقابل يفصل بينها وادي عميق.

فالشهابيون الذين خلفوا المعنيين حوالي ابتداء القرن الثامن عشر تركزوا في دير القمر، في ذلك الوقت غير ملتفتين الى موقعها الهام كقرية صغيرة متأخرة يقطنها الدروز. وتحت حكم الامير بشير ارتقت الى ان اصبحت بلدة ذات شأن يسكنها عدد غفير من مارونيين وكاثوليك يبلغ عددهم في المدة الاخيرة ثمانية آلاف نفس. واشتهرت بمصانع

الحرير. فالتجار فيها بنوا بيوتاً فسيحة ذات ساحات رخامية ومياه متدفقة واثوفا برياش فاخر ثمين. وكل محصولات القرى الدرزية في الجوار تسربت الى ايديهم. وهكذا بلغوا في النهاية مركزاً من الغنى وسعة العيش اثار حسد ونقمة اسيادهم الاقطاعيين المشايخ الدروز من عائلة ابي نكد.

ومذ ان ضللوها بواسطة مؤتمرات البطريرك الماروني غير الحكيمه واقنعوا بالاشتراك في الحملات التي كانت توجه ضد السيادة الدرزية معرضين انفسهم الى مقت وكراهية الزعماء الذين كانوا بكثير من الصعوبة يفضون النظر عن تقدمهم الذي كان بنفسه مزعجاً لكبريائهم. بعد ان تحرروا من الضغط الذي كانوا رازخين تحته في تلك الوضعية، ووضعوهم تحت سلطة حاكم تركي؛ فالمسيحيون في دير القمر تمتعوا بازدهار وتوسع غير معارض في جهادهم التجاري. فتكرست الاموال عند رجالهم المعروفين، واقتنوا الخيول، ولبست نساؤهم وبناتهم الاثواب الحريرية والطيلالس ورهجن بالمجوهرات من ذهب ولاآليء وماس. اما الدروز القلائل الذين مكثوا في البلدة فقد اضعفوا الى اقصى ما يكون من عدم الاهمية وكانوا مجبرين على التصرف بهدوء ولين، فكانوا يستعملون تعبيرهم الخاص بهم مرددينه في قلوبهم بحرقه ومرارة «اصبحنا عند المسيحيين قطاعي حطب وسقاين».

ومسيحيو دير القمر تخلقوا في مخاطبتهم العامة مع الدروز بخلق المستقل، الوضع الذي توصلوا اليه عن طريق الامتياز الذي جعلهم منعقلين من سلطة الدروز. فعربدوا بخيلاء وعجب متفاخرين بأن عندهم الفي محارب مستعدين، عند الحاجة، لمنازلة ثلاثة اضعاف عددهم من الدروز؛ ولا ريب في صحة هذا فيما لو كانوا متحدين وتحت قيادة صالحة. وتدخلوا ايضاً وعلى الغالب بنجاح، في حوادث الضغط الدرزي على المسيحيين في جوارهم. وكان الدروز الذين يختلفون الى اسواقهم ومخازنهم مجبرين على التحلي بسيرة حسنة بتحفظ ولياقة. وكل محاولة لاثارة خلاف او مشاغبة ما من جهتهم كانت، بلا ريب، تقمع وتطفأ بحزم واحياناً بالتحقير والاهانة واحياناً باللكم والضرب؛ حتى ان مشايخ الدروز انفسهم كانوا يشعرون عندما يمرون في هذه البلدة بأنهم مكسوري الشوكة.

ومسيحيو دير القمر كانوا يراقبون بخوف كلي فتح اي باب يهددهم بعودة مشايخهم

القدماء . ولما اراد بشير بك ابو نكد منذ سنتين فقط ان يبني بيتاً في قطعة ارض تخصه ، على بعد ميل من البلدة ارسلوا اليه ان يعدل عن فكرته ؛ واتبعوا الرسول بتهديد يقولون فيه انهم سيهدمون بنفس السرعة التي يبني بها وكل المفاوضات التي تلت كانت بلا جدوى فالمسيحيون لم يلينوا واشير على الشيخ بالتراجع عن عزمه . وقد فعل ولكن بعد هذا التصريح الخشن والذي كان في الحقيقة نبؤة « هؤلاء الكلاب اني سأدك اساس بيتي بجما جههم » .

اما زحلة البلدة التي كانت ضمن نطاق القائمقامية المسيحية فقد كانت ، اذا استثنينا بعض عائلات الروم الذين بينهم ، تترقى بسرعة غريبة ، الى مركز رفيع من الازدهار وعلو الشأن . فبلغ عدد سكانها ١٢٠٠٠ نسمة كان بينهم ٣٠٠٠ ناقل سلاح يتمتعون بسمعة معتبرة ويشتهرون الى مدى بعيد بالجرأة والشجاعة اما صناعة اهلها فالتجارة بالصوف . انهم يجلبون الغنم من شمال سورية ويبيعون ذلك في لبنان . وهم يزرعون كثيراً في البقاع الذي تقع بلدتهم على حدوده ، وحيث يشكلون حاجزاً منيعاً في وجه محاولات السلب من قبل الدروز الذين اعتادوا منذ القدم على اعتبار تلك المقاطعة الخصبية بقراها العديدة حقلاً صالحاً للسرقه والاعتصاب .

وقد تعاهدوا بنوع من التحالف مع مسيحيي دير القمر لحماية مصالح المسيحيين الذين كانوا يفتنونهم . ليس بدون خوف ، لمظاهر كبريائهم ولنجاحهم المحسود ولاقامتهم حاجزاً منيعاً دون محاولاتهم (الدروز) الظلم والاستبداد .

وقد بلغ عد السكان المسيحيين الروم ٦٠٠٠ وعدد الدروز ١٥٠٠ على الاكثر وهنا كان لهم نواة اخرى لقوة مسيحية . والمذكورون لم ينسوا ابداً سلوك الدروز نحوهم عندما كانوا مسلحين بكل قوى الحكومة التركية لأنهم جردوهم من سلاحهم ، واساؤوا معاملتهم وعرضوهم الى كل انواع التحقير والاهانة . فالحوادث اوجدت عداء بين الطائفتين لم يكن في الامكان محوه . وكذلك كان فرع الشهابيين المحمديين الذين كانوا الحكام الشرعيين ، في نزاع دائم مع هؤلاء الدروز الذين كانوا يهضمون حقوقهم ويعرقلون سلطتهم . فاصبحت مهمتهم لذلك معارضة المسيحيين . وهكذا فإن التعدييات التي كان يقدم عليها الدروز في الاماكن المجاورة ، في معاقلهم القديمة في وادي التيم ، من دسائس حقيرة ومشاغبات علنية جعلت

امر استتباب الامن والهدوء مستحيلاً تماماً فكان المسيحيون مجبرين على الوقوف دائماً على سلاحهم كجيش تحت الحصار . ومتى حللنا هذه الاعتبارات الهامة موضع التفكير وجدنا أن سوء الطالع الذي احاق بالمسيحيين في الاماكن المذكورة اعلاه ، عندما هاجهم الدروز بكل قسوة وغضب للاخذ بالثأر والقلبة ، اصبح مفهوماً .

فالدروز وصلوا الان الى حالة سياسية لم تترك لهم بعدها شيئاً يتمنونه . فانهم اصبحوا يمارسون جميع امتيازاتهم الاقطاعية وكل عائلة من عائلاتهم الرئيسية غدت تحكم مقاطعتها حكماً مطلقاً . والمسيحيون الذين كانوا بينهم كانوا تحت سلطتهم وقائمقامهم كان بواسطة القوى التي تحت ارادته والتي كانت كافية تماماً لجعل سلطته محترمة ، مسروراً لان يرى مشايخ الدروز يمارسون عليهم سلطة اسمية مطاعة . اما الحكام الاتراك فلم يكن لهم سلطة مباشرة على الاطلاق ؛ فاوامرهم كانت تنقل بواسطة القائمقام وكانت تطاع او لا تطاع وذلك حسب خلقية ومكانة الذين كانت توجه اليهم . وهكذا اصبحت المقاطعة الدرزية ، في الحقيقة جمهورية مستقلة .

لم يمض وقت طويل حتى اصبحت تأثيرات هذه الحالة من التنظيم ظاهرة . فان كل سنة تمر كانت تؤكد لمشايخ الدروز زيادة قوتهم وتثبيتها وعدم مسؤوليتهم عما يعملون وقد استمروا على التمتع بالحرية وعدم المسؤولية اللذين كانا يضعان حداً لكل انقباض وضيق . ولما كانوا مكلفين بجباية الاموال الاميرية فقد خصصوها لحاجاتهم الخاصة فبنيت البيوت وشريت الارض واستثمرت الممتلكات الاميرية وحليت الخيول المطهمة وروضت ، وكل ذلك سرقة من مال الدولة . ومع انهم دعوا مرارا الى الحساب فقد لجأوا دائماً الى التأجيل واخيراً الى التخلص من الموعد المضروب . ولو فرضنا ان قائمقامهم ، يائساً من هذا التأخر عن تأدية المتأخرات من الضرائب التي كان وحده مسؤولاً عنها امام الحكومة ، خاطر بارسال فرسانه بينهم يطالبهم بتأدية قسط واحد على الاقل ، مها كان ضئيلاً ، من المتوجب عليهم ، فاما انهم كانوا يمنحونهم ضيافة حرة حتى يملوا الانتظار الطويل فينصرفوا أو انهم كانوا في حالة العناد غير المحتمل يطردونهم بدون لياقة . وفي بداية الحرب الروسية عرض مشايخ الدروز خدماتهم لتجهيز قوة والذهاب الى كرميا أو الى آسا الصغرى . وقد كانوا متحمسين في تقديم خضوعهم للسلطان وكرههم للكافر .

والحكام الاتراك قرروا تجريبيهم فخصصوا ١٥٠.٠٠٠ ليرة ذهباً لاجل حاجاتهم الخاصة. فهبط مشايخ الدروز من مساكنهم في الجبال باهية عظيمة وجلبه يتبعهم مئات الدروز يشوحن ببيارقهم وينشدون اغانيهم الحربية. كل منهم ليقبض القسم المخصص به لدفع الرواتب ولشراء الحاجات. ولكن وطنيتهم انتهت عند هذا الحد. فمنذ ان قبضوا المال الى جيوبهم أخذوا يضيعون وقتهم بالتنقل في البلاد ملتجئين جججا عديدة طوال عدة اشهر، وانتهوا اخيراً بعدم تركها على الاطلاق. وقد كررت الحكومة الطلبات لاجراء حساب بالمبالغ الكبيرة التي أخذت منهم بخدعة ولكن بدون اقل نتيجة.

وفي مقاطعات الدروز أصبحت الحياة والممتلكات تدريجياً غير مصالحة. لأن الدروز كانوا يسلبون ويفتكون بمن يريدون دون ادنى ملاحقة. وفي خلال عشر سنوات اقترفوا سبعائة جريمة قتل في نطاق حكمهم ولم يتعرضوا الى محاولة واحدة من تحقيق أو تدقيق. وفي حادثة فظيعة. حادثة ذبح عائلة مسيحية بلا ادنى سبب من قبل الدروز، رفعت العرائض الى اسطنبول وورد بالنتيجة ثلاثة تحارير وزارية الى خورشيد باشا تأمره باتخاذ التدابير السريعة لاكتشاف الجناة ومعاقبتهم ولكنه لم يوجه ضدهم تدبيراً ما، فالدروز كانوا يفاخرون بعملهم هذا. بينما كان المسيحيون التمساء يشعرون بأنهم موثوقو الايدي والارجل امام مدى جزائهم كلما رغبوا في اشهارها.

ولا يجوز الاعتقاد بانه لم يوجد هنالك قوة تتمكن من قمع تصرفاتهم الوحشية غير المشروعة. انه لم يكن من حاجة الى توجيه قوة كبيرة لاضعاع الدروز الى طاعة تامة، او تحصيل جميع مطالبهم منهم مهما كان نوعها. وان اقل توجيه روحي من الاتراك الى القائمقام الدرزي في كيفية القيام بواجباته، شريطة ان يعطى بشكل يجعل الدروز يشعرون انه صادر عن ارادة ورغبة حازمة وفي الامكان ملاحقته اذا اقتضى الامر بقوة وحزم، يكفي بلا ريب لقمع كل مخالفة وقحة للشرائع والعدالة وتخليص المسيحيين من ظلمهم القاسي وضغطهم.

لكن هذا لم يكن هدف سياسة الاتراك في لبنان. ولم يكونوا مفوضين في حكمه على طريقتهم. انهم كانوا مرغمين على الرضى عن مشاهدته ممسوخاً بالفوضى والاضطراب. وكانوا يأملون، وفي الحقيقة كانوا متأكدين من أن الازمة التي لا مفر منها يجب أن تأتي، تقف الطائفتان ثانية متقابلتين في موقف عدائي، وعندما يتمكنون ثانية من استثمار لعبتهم

الخطرة، لهذا اعطوا الدروز صلاحية غير محدودة في كل عنادهم وتعدياتهم الجائرة، انهم تمادوا الى ان تذللوا امامهم لاعتقادهم انهم عندما تأتي الساعة يجدونهم صنائع لتحقيق نواياهم الرهيبة بفرح وحاس.

ان الاعلان الحماسي للحرب الروسية كان، متميزاً بكونه تجربة لمحبة الذات التركية والتظاهر بالاعتماد على النفس. انهم كانوا يشعرون بانهم مدينون بنجاتهم وحياة قوميتهم للتدخل الشريف من قبل الدول التي كانوا يحتقرون ديانتها ويكرهون سيادتها وتفوقها. وإن الحقيقة الراهنة لحاجتهم الماسة الى مثل هذه المساعدة كان مغايراً لكبريائهم وكان امر المحافظة على اهميتهم ومكانتهم في نظر اتباعهم المحمدين تحت حكم هذه الروابط من الاعتراف بالجميل والشكر نقطة على جانب عظيم من الاهمية. وزيادة على هذا فان دولة واحدة من هذه الدول، على الاقل، قررت بان التضحية التي بذلتها باراقة الدماء الكثيرة وانفاق الاموال الطائلة من جانبها لا يجوز ان يذهب هدراً دون ان تعطى شيئاً في المقابل؛ فكانت ترمى الى الحصول على مصالح معادلة للمسيحيين المتفرقين، على الاخص في المقاطعات الشرقية من امبراطوريتهم.

كما وانه يجب الاعتراف بان الخطأ، التي اتبعتها فرنسة في هذه المدة نحوهم ارهقت صبرهم كثيراً بل وزادت تمرمرهم وبغضاءهم الطائفية. وفي جميع سوريا خاصة، توصل موظفوا القنصلية الفرنسية الى الاشراف على مصالح المسيحيين لكونها من حقهم الشرعي ولكونها بقيت لعدة سنوات، في الظاهر، مهمة. فامتاز القنصل الفرنسي العام في بيروت اكثر من كل زملائه بمظهر الصلف وتصرفه الدكتاتوري ورغبته القومية في نشر النفوذ الفرنسي، بنواياه المخلصة وآماله بتحسين حالة المسيحيين ورفع مستواهم بهذا التصرف الجريء. ونجاحه كثيراً أو قليلاً في تحصيله لهم مؤقتاً، مركزاً لائقاً، حقيقة غير مشكوك فيها. غير أن اجتهاده لم يكن عن حكمة. لقد احب القضية المسيحية « كثيراً ولكن دون رؤية ».

ان شعور المسيحيين بضمان الاحترام الذاتي والتمتع بالسيادة تحت رعايته السامية والتظاهر باستخفاف كل سلطة سواها كانا مسرتين كافيتين لو كان من الممكن دوامهما، وانه من المؤكد أن فكرة عدم استقرار ودوام ذلك لم تجد، ولا مرة واحدة، الى عقل راعيهم منفذاً « فإن من يفلق الصخر لا يرهب الوقر » وان ذاك الذي ابان ان تصرفاته

حملة صليبية ضد التعصب المحمدي والشعور المحمدي، لم يكن ليقدّر ولا في مرة واحدة انه كان يغذي ينابيع التعصب الذميمة الخفية، التي وان تكن انذاك قد حملت بهدوء وخفيت عن الاعين فستظهر عند أول مناسبة واضحة جلية بصورة لا تقاوم ولا تقمع ولا تذلل.

لم يبق شيء لم يعمل القنصل الفرنسي العام مما يثير الحسد والحقد في الحكام الاتراك وابناء دينهم، مع التأكيد انها كانت غير مقصودة منه. فالاول (الاتراك) كانوا خائري العزم امام نفوذه الجريء في القسطنطينية، خوفاً على مراكزهم لذلك رضخوا حالاً لكل اوامره، فابواب السجون كانت تغلق وتفتح عند ارادته، والاغواث والمتسلمون كانوا يوظفون ويعزلون بموجب رغبته الملكية. والمحمديون في الشوارع والمحلات العامة كانوا يجبرين على السكنية او الوقوف عندما يحين مجيء سموه.

ان الرعايا الفرنسيين او اولادهم أو ابناء عمهم كانوا خاضعين له وحده يجلسون في ديوان الولاية جلوسهم مع نساء لهم ويعاملون موظفيه بعدم مبالاة تامة. وكان امراء العرب، من اقصى البلاد، من الدروز والنصيرية، ومشايخ المسيحيين على السواء، يدعون بلطف لحضور العيد الفرنسي حيث يتلقون ايعازات الرجل العظيم. ويلهون في ضوء شمسهم ويستقون من نبع المكافآت والرواتب. كما كان يقدم احياناً بجولات في الجبال حيث يستقبل بهتافات عظيمة، فتقرع اجراس الكنائس والاديرة، وتخرج مواكب الكهنة، وتطلق الغراصات الداوية.

لا عجب اذا نظر الاتراك الى هذه المظاهر الضخمة بخوف وتعجب واندهاش. أو رأوا من علاقاته واتصالاته الدائمة مع مسيحيي لبنان، ومأمورياته الفخمة الى قائممقامهم، واجتماعاته السرية مع البطريرك الماروني، مسوغاً للتفكير، بملاءمة الظرف اخيراً لجعل لبنان وسيلة صالحة لادخال قوة اجنبية الى ممتلكاتهم.

اما جماعات المسلمين فقد كانوا امام مظاهر الطموح والتهجم على جانب عظيم من الانفعال فكل بريد يخرج من بيروت كان يحمل معه التحارير الى اقصى اجزاء سورياً مضورة بعبارات مؤثرة حالة التحقير والصغارة التي وصل اليها الامنون والاهانات التي كانوا معرضين لها يومياً بواسطة احط الرعايا الذين كانوا ينعمون في حماية الفرنج العصاة. فالقدس وحلب ودمشق على السواء كانت لها حكايات المتجاوبة عن الازلال والاختفاء.

وفي المدينة الاخيرة - المدينة المقدسة والخالدة من حيث قفل محمد راجعاً لكونها اسمى من ان يوجد فيها وحيث سينزل المسيح بشخصية ليقاضي البشر وحيث المسيحية نفسها خضعت دائماً بمذلة وضعف امام صولجان الاسلام الطاهر - اصبح المواطنون المسيحيون امراء المتاجر يعيشون في قصور مزدانة بالرخام ومطلية بالذهب لقد تباهوا بغناهم وتفننوا بمفاخر الزينة وتمتعوا بكل انواع الانفاق والبذخ. كانوا يثيرون حسد وغيره جيرانهم المحمديين الاقل سعادة فهؤلاء الاخر كانوا مجبرين على مشاهدة هؤلاء يرفعون الى درجة ممثلين للدول الاوروبية. والرجال الذين كانوا منذ سنين قليلة يلتقون بهم في الاسواق ويدفعونهم غير مباليين الى المجرى، كانوا يخطرون لأن امامهم في الشوارع تتقدمهم كل آلهة القناصل وفخفتهم وما يزيد عنها روعة وبهاء وفي مثل هذه الحالة كانت تقف المحمدية في كل اقسام سوريا موقف الدفاع. فتألفت الجمعيات السرية في كل النواحي لوضع حد لهذا التأخر العام بكل وسيلة، واية وسيلة. فاذا كان مركز البلاد من اسطنبول حيث هناك سلطان ضعيف واهي العزيمة يقترب هذه الجرائم، فيدعن للفرنج بالقضاء على اسمى امتيازات الرسالة الدينية ويستسلم بدون مقاومة الى هدم ابرز واعز الحقوق المعترية واسمى مفاخر الثواب لذلك الدين الخفيف الذي ثبته السيف والزمن فلتؤخذ روحه ولتلق البردة النبوية على اكتاف خليفة افضل، واذا، فشل هذا، فليلجأ المؤمنون الحقيقيون الى سلاحهم الحقيقي منتظرين الساعة ومستعدين لظهور العلامة.

«استيقظ انهض أو ابق مهشماً في الخيض».

هذه كانت بلا ريب عاطفة المحمديين في جميع الامبراطورية العثمانية في سنة ١٨٥٧، كما انها هي هي حتى الساعة، عاطفية ليست مهاجمة أو محرقة الا بواسطة الاتراك انفسهم.

وفي هذا الوقت، وعلى اثر موت القائمقام المسيحي السابق وضعوا مكانه قائمقاماً في لبنان العضو المجرب المتمرن على الدسائس والمفاسد الامير بشير ابو اللمع. ها قد اصبحت الكرة على اقدامهم ولم يبق امامهم إلا التصبر والدراية لتحقيق جميع تدابيرهم وخططهم. ومهما كانت واجبات هذا القائمقام نحو رؤسائه او علاقته بوالي بيروت فقد اشعر حالاً بان هنالك عامل اخر يتطلب اجتهاده وخضوعه. كما وان القنصل الفرنسي النشط الذي لا يتعب طلب أيضاً كما طلب الاتراك حكم لبنان المباشر غير المقسم،

وهكذا وجد القائم مقام نفسه في حيرة. ولكنه وجد حلاً بأن صعوبته ليست مستحيلاً، ولا تستطيع ان تقول عنه « انت لا تستطيع ان تخدم سيدين » لانه خدم الاثنين هذا وذاك بلباقة تامة - فاعمال الاثنين كانت تتطلب عريضة وفوضى لم تمكث تأثيرات الضغط الفرنسي على القائم مقام طويلاً حتى أصبحت بارزة. فالأخير (الأمير) وهو درزي المولد كما كانت كل عائلته كان مقيداً بوظيفة اسمية في الدين المسيحي، وفي الحقيقة فقد كان عاطفة ومبدأ قليل الاهتمام بأوامر الكهنوت الماروني الكنسية، فالبطريرك الماروني لم يكن معبوده، ومع هذا اجبر على الخضوع والعبادة، فقد قيد نفسه بعهد بحضور القنصل الفرنسي العام بأن يطيع اقل اشارة منه. وهكذا خلقت ولاية ثلاثية مقيدة بمبدأين - الخضوع من قبل السلطة المدنية للسلطة الدينية وخضوع الاثنين لفرنسا. وكل من خالف أو خان في تنفيذ هذا النظام يسحق بدون شفقة.

والبطريرك الماروني، في هذه المدة، وقد كان جديداً في مركزه، كان مشهوراً بامرئين: مقتته للاستقراطية الاقطاعية وتعصبه الاعمى لمعتقداته الدينية. لاجيال خلت كان البطارقة المارونيون ينتقون من العائلات المقدمة، تقريبا بدون تغيير، في لبنان. غير ان هذا كان فلاحاً ومن اتباع آل خازن العائلة العريقة التي كان مدينا لها لكونها علمته وأهلته للترقي في حياته الكهنوتية وفي بلوغه المركز البطريركي. بيد أن ذلك العرفان للجميل الذي كان من الممكن ان تنتجه كل هذه المساعدات تلاشى في مبدأ التمسك بالقسوة الدينية وروح الكراهية الموروثة لأبناء الطبقة النبيلة تلك، التي في النظام الاقطاعي على الاخص يجب ان ترسخ في صدر ابن الشعب.

كان القائم مقام منذ زمن يهاجم حقوق الارستقراطية المارونية ويهمل امتيازاتهم ويقوم باستعمال سلطته المباشرة في امور كانت منذ اجيال مختصة بهم وحدهم. وكان المسيحيون الروم قد اصبحوا ثمانية عريضة لاضطهاد كنسي وفي احدى المناسبات قبل احد المسيحيين الروم الاعتقاد الماروني في قرية كبيرة مأهولة بمجموع من تلك الطائفة (الروم) فوضعت الكنيسة اذ ذاك تحت حكم الطقوس الدينية المارونية، وجلد الكاهن العامل بوحشية على المذبح. ونزل القائم مقام بجنوده على العصاة ليجبرهم على الخضوع واخيراً حولت الى اسطبل وكذلك كانت مطالب الروم في المحاكم المدنية غالباً مهملة وحقوقهم في حالة نزاع مع المارونيين مهضومة بدون شفقة. إن طالبوا طردوا بقسوة أو احتجزوا وكذلك اهيئوا وجلدوا.

كانت نتيجة هذه الحوادث المتكررة هيجان عام واستياء في جميع المقاطعات المارونية في لبنان. تأتي الاحزاب المظلومة الى بيروت لترفع امرها الى خورشيد باشا فتصدم احياناً في الطريق وتهاجم من قبل اتباع القائم مقام وكانوا اذا اعتقلوا بعضهم اخذونهم الى القرى في الجبل فيكبلونهم بالقيود. كذلك كان الوالي يستقبلهم ببرودة بل بسخرية وهزاء. كما كانت التماساتهم تحمل حمل العصيان. فكل تصريح باستيائهم العام لاجراء ما من قبل السلطة كان يعتبر ثورياً وهكذا شعر الملتمسون اخيراً بتلاشي امالهم بالرحمة والانصاف. لقد ارسلوا وفوداً الى اسطنبول بتأثير اعظم، واللورد سترتفورد ده ردكليف Lord Stratford de Redcliffe، تمكن بتلك القوة النزيمية التي كانت واضحة في كل علاقته مع الباب العالي، أن يجبره على ارسال بعثة سريعة الى سوريا لاجل التحقيق.

ولكنها كجميع البعثات التركية، خصوصاً التي ترسل بواسطة الاوروبيين، برهنت على فشل مقصود. فالمندوب علق بين ايدي الحكام القانونيين ورشي بمبلغ عظيم فوقع تقريراً اصدره هؤلاء الحكام انفسهم، بأن القائم مقام غير مخطيء وان المعارضين ثوريين وقحين. وبعد غياب عدة اشهر رجع الى اسطنبول ولم يكن هنالك حادثة اكثر فظاعة وقباحة ودساً وظلماً من هذه القضية المعروضة. ولكن الاتراك لن يلجأوا الى نزع اداتهم. فقائم مقام شريف يكون عثرة في طريقهم. انهم كانوا يريدون ان يظهرها للملأ بأن ليس هنالك حكومة تستطيع ان تحكم لبنان سوى حكومتهم وكلما رأوا لبنان يندمج في الفوضى والارتباك، شعروا بأن امنيتهم اصبحت قريبة المنال فالدول الاوروبية، كما اعتقدوا، ستزعج من هذه المناظر المهيجة والنزاع المدني الدموي، وترضخ للامر.

وفي الوقت نفسه حققت الولاية المثلثة انتدابها. فمشايخ آل خازن حكام المقاطعة الاهلة بالسكان كسروان اقترفت المخالفة غير المغفورة، إذ لجأت الى الحكومة الانكليزية لرفع مظالمهم للباب العالي، وهذا الخروج المفض، من قبل هؤلاء، عن مبدأ الخضوع الماروني لفرنسا لم يكن فقط غير مغفور، بل كان عليهم ان يمنعوا تكراره وانتشاره، هذا التدبير القبيح، يجب ان يعاقب عليه بشكل علني. وفي الحال ثار عليهم فلاحوهم بهجوم مسلح. فالقائم مقام اوعز اليهم علناً أن يذبحوا مشايخهم ويستولوا على املاكهم وهذا الايعاز نفذ بدقة فانتشرت الفرق المسلحة في كل الجهات تنزل بالمشايخ الموت المحتم ولم يبق لهم امل أن ينجوا بارواحهم. ففروا بصعوبة متناهية ولكن لم يسلموا من

الأذية. فلجأ البعض منهم الى قصر البطريك الماروني ولكن المجموع تبعهم واحاط بالبناء ينادي بالصوت العالي طالباً تسليمهم اياهم. وقد اظهر البطريك العجز التام عن ايقاف هذه الحركة واضطر للمفاوضة مع المتمردين واخيراً اعطى المشايخ المساكن حماية الى بيروت.

وصلت الحركة الاخيرة الى تأليف ثورة منظمة قامت بجميع انواع الهيجان الوحشي. فمنازل المشايخ المطرودين احرقت الى الأرض. وكان كل من يوجد سالماً من المشايخ يقبض عليه حالاً ووضعت في عنقه حبل وسحب من هنا الى هناك في شكل مهين واخيراً عذب الى ان مات وكذلك ذبح زوجته وابنته. وصودرت جميع ممتلكاتهم وقطعت احرشهم ووزعت للحاجات العامة.

وفي خلال سنتي ١٨٥٨ - ١٨٥٩ استمر هذا النسق من السرقة والنهب بلا خوف. فانتخب الفلاحون دكتاتوراً كانوا يخضعون له خضوعاً أعمى وهو بدوره عين منهم قادة لتنفيذ اوامره ولجنة تشريعية لتنظيم التدابير القضائية والامام بمخالفات العصيان. وقد صرحوا، عندما شجعوا بعدم الملاحقة بانهم مستقلون عن كل سلطة عليا، فانقلبوا ضد القائما واخبروه انهم لا يهتمون له ولا لسيدته التركي. وفي الواقع انه عندما حاول الوالي معاقبتهم بارساله قائداً على رأسه شرذمة من رجاله، صدوه ومنعوه من التقدم خطوة واحدة الى جبالهم واجبروه على التراجع وهكذا احبطوا كل مساعيه.

اما الخازنيون فلم يدروا من أي مرجع سيأتيهم الخلاص. فالأتراك استمروا على ما كانوا عليه من اللامبالاة. والقنصل الفرنسي العام والبطريك كانا عدوياً وكل املهم بقيت معلقة على العطف الكرم والمعارضة القوية من الحكومة الانكليزية التي قدموا لها خدماتهم في سنة ١٨٤٠ عندما ظهر الاسطول الانكليزي على الشاطئ ودعاهم لمعاوضته ضد المصريين، وقد قدموا نفس التعهدات التي اعطيت لهم من ان امتيازاتهم تصان وان حقوقهم المكتسبة تؤيد وتقاليدهم القديمة تحترم، وان الحكومة الانكليزية، كما قدموا بحق، مرتبطة معهم بجميع روابط العدالة والشرف لتلح على الباب العالي بانه من الضروري اتخاذ التدابير لمعاقبة الذين سلبوهم وذبحوهم، وتعمل على اعادتهم الى بيوتهم وممتلكاتهم وقد حولت هذه الالتماسات المستعجلة الى السفارة الانكليزية في اسطنبول ولكن كل ذلك كان بلا جدوى فان عقل السيد الذي كان بامكانه، والذي كان يعمل ليصلح وينظم كان

قد ذهب فسفير انكلتره الجديد لا يعبأ بهذه الامور وهو لو فعل لما كانت ارادته قوية ولما كان صوته كافياً فهو من المتحمسين لتأييد نظرية «عدم التدخل» القاتلة لنفوذ الانكليز ولتثبيت المصالح الانكليزية في الامبراطورية العثمانية والمميتة ايضاً لصالح تلك الامبراطورية نفسها فالوزراء الاتراك كانوا متروكين ليتبعوا خططهم العمياء ويتأثروا بدون دليل على تتبع هدفهم الاعمى المنشود والاتراك في تعصبهم الذاتي نظروا الى تكرس الحوادث التي كانت تهيم لهم، في برهة قليلة، رمي لبنان بين ايديهم. فالمسيحيون توصلوا الى حالة جعلتهم يشعرون ويأملون بان يسود الاعتدال والحكمة. فقد كانوا يعرفون انهم كلما ضاعفوا عربدتهم وهياجهم ازدادت مطامعهم. لقد تابعوا هذا التهيج لتلك الغاية املين ان يقودهم الى الخراب لقد كان بامكانهم، في اقصر وقت، تأمين النظام ولكن هذه لم تكن رغبتهم، فاعادة المسيحيين الى الطاعة بينما يتمتع الدروز باستقلال تام لم يكن هدفهم. لقد كانوا يتساءلون أي الطائفتين يجب أن يمحوا: اتلك لغطرسة اقطاعيتها أمن لك لحقها وكرهها. ولكن بتشويش الاثنتين وجعل الواحدة اداة لسحق الاخرى ولو بتشويه كل حسنة الشعور الانساني، كان يجب العمل فالاثنتان يجب ان تصبحا فريستهم. وعندئذ يصبحون حقاً اسياد الموقف. فالوقت دنا - ذلك الوقت الذي ظهر صالحاً لاتمام غاياتهم.

لقد منح مشايخ الدروز عطفاً خاصاً. فكانوا كلما نزلوا من مساكنهم الجبلية يستقبلون بغاية التملق. فقد عين بعضهم في الامن العام واعطي الآخر مأموريات راجحة. فسعيد بك جن بلاط زعيمهم الكثير النفوذ اعطي بموجب فرمان من اسطنبول رتبة ياور امبراطوري مع وسام. ووبخ القلائل الذين كانوا يترددون على بعض القنصليات لمسايرتهم وخضوعهم لدول اجنبية. فاين يجدون حماية سمحة مفيدة كحماية سلطانهم الخاص الذي اصبح الان سيد سياسته الخاصة متحرراً تماماً من كل تدخل اجني غير محاسب على عمل من اعماله. والدروز عندما وجدوا انهم محترمون وان مهمتهم في ائتلاف الممتلكات العامة مغضوض عنها الطرف ومحاولاتهم المتعددة للتهرب من كل تبعة ناجحة وعبثهم بالممتلكات والارواح مسامح تعظم غرورهم بتقدير اهميتهم بينما كانوا في الوقت نفسه يتذللون في استعطاف اسيادهم المتسامحين وهكذا فلم يبق امام الاتراك بعد ان وضعوا خططهم الا ان ينتظروا سير الحوادث بصبر.

الفصل الخامس

العراك آب ١٨٥٩ - خورشيد باشا - اعتداء الدروز
ايار ١٨٦٠ - سقوط دير القمر - مذبحه جزين - ٣
حزيران ذبح الذكور في حاصبيا وفي ٤ منه في راشيا -
الست نايفة (شقيقة سعيد بك جنبلاط) تشرف على
المذبحه.

الفصل الخامس

في الثلاثين من شهر آب سنة ١٨٥٩ حصل مشاجرة ذات شأن بين الدروز والمارونيين في قرية بيت مري التي تقع على بعد ثلاث ساعات من بيروت. والسبب الحقيقي كان مشاجرة بين درزي و غلام مسيحي، فجاء والد هذا الأخير مع ثلاثة مارونيين آخرين إلى والد الغلام الدرزي وألحوا عليه مهديين بأن يعاقب ولده. فأخبر الرجل الدرزي أقرباءه الذين بلغ من تهيجهم أن أرسلوا يستنجدون بالدروز في القرى المجاورة وفي اليوم التالي اجتمعوا معاً وطلبوا منه أن يعتذر عن الاهانة، كان المارونيون على وشك إجابة الطلب عندما أطلق بعض الدروز بنادقهم تفاخراً فاعتبر الأول ذلك تحدياً فأسرعوا إلى السلاح وثوروا على الدروز ناراً حامية أتبعوها بهجوم عنيف، سيق الدروز على أثره إلى خارج القرية بخسائر كبيرة وفي اليوم التالي، يوم أحد، أعاد الدروز الكرة وكان صدام شديد بين الطائفتين دام طوال النهار دحر المسيحيون بدورهم فيه، غير أن خسارة الدروز على الإجمال كانت ثمانية وعشرين قتيلاً زيادة عن المسيحيين، الذين في هذه المناسبة أظهروا شجاعة غير اعتيادية.

أما الحكام الأتراك فقد أخذهم العجب. فأرسلوا حالاً أحد الموظفين إلى القرية وهذا جمع المتخاصمين الأساسيين من الجانبين وأجرى صلحاً ظاهراً. ولكن الدروز، مع كل ذلك، في نواحي الجبل الأخرى، اعتبروا هذه المشاجرة علامة لحرب أهلية وتحت تأثير انكسارهم غير المنتظر وخسارتهم العظيمة بدأوا حالاً بقيادة أحد شيوخهم بإحراق بعض قرى المسيحيين. وعندما بلغ خبر الاضطراب المخيف الذي قادت إليه الظروف، خورشيد باشا، ركب إلى مركز متوسط على طريق دمشق يتبعه بعض الجنود ليمنع امتداد توسع الشر. وهناك جمع زعماء الحزبين بوجوده وحتم عليهم أن يتفقوا على حفظ السلام. وهكذا استتب النظام حالاً غير أن الدروز الذين أقدموا على إجراء هذه التعديلات لم

يعاقبوا ولم يوقفوا. أما مقدرة الأتراك وقوتهم على جعل الجبلين يلجأون إلى إطاعة أوامرهم فقد ظهرت هنا مجلاء دون أن يكون هنالك حاجة إلى المدفعية والفرسان أو آلاف الجيوش لتفريق المتقاتلين. فالحرب الأهلية في هذه الآونة لم تناسب غايتهم لقد رغبوا في أن تقف المنازعات - والمنازعات وقفت.

وكل من علم أخلاق الطائفتين المتعاديتين والحقد الذي كان سبب عدائهما يرى أن الحرب الأهلية بالرغم من تمديد أجلها مؤقتاً كانت منذ ذلك الحين رهينة الوقت. فالمارونيون كانوا متحمسين ومشجعين بانتصارهم الأول: فإذا كان هؤلاء من بيت مري، الذين لم يشتهروا أبداً بشجاعتهم، أوقعوا مثل هذه الخسارة في الدروز، فهاذا الذي ننتظره من مسيحي دير القمر وزحلة وجزين إذا أشهروا سيوفهم؟ أما أن يتسامح الدروز تماماً في قبوله أو ينسوا انكسارهم المريع، أو يتخلوا عن الأخذ بالثأر، فذلك ضرب من المستحيل، وفي الواقع فقد بدأ الجانبان من ذلك الحين يستعدان إلى معركة مميتة لا مفر منها، ويعدان العدة لها.

إن النداء إلى حمل السلاح الذي قام به الدروز من أجل هياج شخصي، والسرعة التي اتحدوا بها من أقصى الأماكن كانت تدل بوضوح على نوايا سبق الاتفاق عليها أوقعت المجموع المسيحي في ذعر عام. فلخمس عشرة سنة خلت كان الدروز يضغطون على المسيحيين القاطنين بينهم بكل وسيلة ممكنة. وكان المسيحي يشك في حجة اعتبار حياته ملكاً له ولذا انتشر في لبنان عموماً شعور بالشفقة على مكانتهم المتأخرة الناعسة ان آل جنبلاط وآل عماد وآل أبو نكد كانوا مشهورين ببربريتهم واستبدادهم الجائر. غير أن معاقل المسيحيين كانت حاجزاً منيعاً لوقف أعمالهم غير المشروعة والتي أشير إليها؛ ولهذا السبب فقد كانوا يتربصون الفرصة للهجوم والتخريب والقضاء عليهم وكانت مجاهرتهم برغبة في حفظ السلام أحسن ستار لنواياهم الخفية اللامبدئية. إنهم كانوا يلقبون المسيحيين بالمفسدين العديمي الاكتراث. ويرددون بحذق ودهاء، مقدمين بوضوح العبارات القاسية التي استعملوها ضد أنفسهم في السابق.

وكما كان المحمديون في المدن يخلقون الأعذار دائماً وأبداً لمهاجمة المسيحيين بتقديم التقارير في أنهم كانوا على وشك المهاجمة منهم، فهكذا أصبح الدروز أكثر فأكثر متشددين في شكاوتهم من تعديات المسيحيين بنسبة اقتراب الوقت لسحق واستئصال

معاقل القوة المسيحية القليلة التي كانت تقف حاجزاً في وجوههم في المكان الذي كانوا يدعونه بكبرياء ورفعة «الجبال الدرزية».

والمسيحيون عند مشاهدتهم بوضوح كل هذه التدابير العدائية وملاحظتهم بخوف سري قاتل الصداقة والاتفاق الحي الذي كان موجوداً بين الدروز والحكام الأتراك بدأوا بحكم الطبيعة في أخذ التدابير اللازمة للمدافعة عن نفوسهم. فالمارونيون الأغنياء قاموا باكتتاب لأجل مشترى الأسلحة والذخيرة التي كانوا يفرقونها على أبناء دينهم في الجبال. وانتشرت رغبة عامة للقضاء على كل خلاف بينهم وبين المسيحيين الروم، ليوجدوا اتحاداً تاماً ومعاونة بين كل أجزاء الجسم المسيحي. والاكليروس الماروني سخر كل قوة نفوذه ليحقق هذا الاتفاق المرغوب فيه. أما المسيحيون فكانوا إلى ذلك الحين ضعفاء لتحاسدهم المتبادل، في وقت كالوقت الحاضر. عندما كان بلا ريب هنالك حملة مدبرة ضد إيمانهم المشترك. بادرة سيئة مقدرة وغير خفية، لترمي كل منهم في عبودية مهينة بإلقاء كل مقت الدروز الشرس عليهم بلا مبالاة فالحاجة إلى عمل مشترك، كانت غير مستغنى عنها وعلى كل فئة أن تكون على استعداد - عندما تأتي ساعة التجربة، هذه كانت لغة المارونيين.

والأتراك، من جهتهم، أولئك الذين كانوا يعرفون بوجود مثل هذا الشعور، ويرون الاستعدادات العظيمة التي كانت ترافقه اجتهدوا ليضاعفوا في تقريب العلاقات التي كانت موجودة بينهم وبين الدروز فعدد كبير من المشايخ الدروز أجروا التدبير غير الاعتيادي ليعرفوا شتاء سنة ١٨٥٩ - ١٨٦٠ في بيروت، حيث كانت اجتماعاتهم مع الحكام الأتراك طويلة ومتعددة وعلى الغالب يومية. أما الغاية منها فلم يكن فيها أدنى شك ومع أن كل التفاصيل التي جرى البحث فيها بقيت غير معروفة فالحقيقة العظمى التي شاعت كانت أن الدروز دعوا ليهيئوا أنفسهم إلى خدمة هامة جلية وأنهم أجابوا النداء بكل معاني الخضوع للسلطان غير أنهم قدموا بملء الحرية ملاحظتهم بأن مثل هذه المسؤوليات لا يمكن أن تؤخذ على العاتق أو يُقبل باجراء مثل هذه الخدمات إلا بموافقة صريحة وتعليمات واضحة محدودة من اسطنبول. وفي أوائل ربيع سنة ١٨٦٠ رجعوا إلى بيوتهم.

وفي شهر نيسان استلم خورشيد باشا مراسلات من اسطنبول ظهر عليه على أثرها أنها

أنقذته من حيرة مزعجة وأعربت لهجته عن انشراح وتثبت. وحتى أنه أشيع في السراي وصول الفرمان الذي سيعيد العصاة إلى إدراكهم. وعلى غرار هذا عقد سعيد بك جنبلاط ديواناً للدروز في المختارة، وأصبحت مراسلاته غير منقطعة. ثم أخذ الوجهاء من أتباعه يتوافدون إليه من جميع النواحي. وبعد ثلاثة أسابيع آخر ظهر نشاط عام في جميع المقاطعات الدرزية في لبنان، فالمسيحيون الموجودون وأحياناً جماعات منهم كانوا يهاجون ويدبحون من قبل الدروز في الطرقات المنقطعة التي كانت في الغالب مرابطة من كل جهة، وهكذا وقد باتوا محاصرين بكل أنواع الخوف والرعب أخذت عائلات منهم بكاملها تترك قراها وتطلب ملجأ يحميها في أحد المراكز الرئيسية مثل زحلة ودير القمر. أما بيوت الهاربين فقد كانت في مناسبات كثيرة تحرق إلى الأرض وكانوا هم في الغالب ملاحقين من قبل الدروز الذين على أقل تقدير كانوا يسرقونهم ويجرحونهم ويجردونهم من سلاحهم. ولإثارة إهانة أعمق تأثيراً وعلى الأكثر بقصد خلق هياج للثأر الغاضب للمشاعر الدينية المسيحية دخل بعض الدروز في اليوم الرابع من شهر نوار إلى الدير الماروني في عميق قرب دير القمر وذبحوا رئيسه في فراشه.

أما في قرية حاصبيا فالدروز الذين كانوا تحت رئاسة الست نايفة، شقيقة سعيد بك جنبلاط والتي تلقت منه الأوامر، بدأوا ينقلون بيوتهم وكل أثاثهم إلى أماكن أخرى، وهذا كان قبل حصول الاصطدام الفعلي بين الدروز والمسيحيين بثلاثة أسابيع. وقد تساءل المسيحيون بغير جدوى عن سبب هذه الحركات مظهرين بشوق رغبتهم في البقاء بسلام حتى أنهم أرسلوا قاداتهم إلى عقلاء الدروز يلتمسون منهم استعمال سلطتهم لوقف هذه القطيعة المتزايدة وقد قابلوهم بأعذار منمقة وتأكيدات بأن لا لزوم لخوفهم مع أسباب أخرى معادلة في اقناعها. أنهم تمادوا أخيراً في إلانة قلوب العقلاء بهدايا ثمينة من الكتان والاقمشة خلاف التقدمات الاعتيادية من رز وقهوة وسكر وخلاف ذلك. وفي الحقيقة فقد كانوا مستعدين ليضحوا بكل شيء في سبيل إيقاف الحرب الاهلية إذا كان ذلك ممكناً. فعقد على الاثر صلح مؤقت غير أن استعدادات الدروز استمرت بنشاط متزايد. أما المسيحيون في القرى المختلطة فانهم عندما رأوا أنفسهم هكذا مهددين من كل الجهات شعروا بأن ساعة التجربة حانت. فقاموا ببعض انتقامات من جهتهم. ولكن لم يكن ذلك شيء يذكر بجانب المهاجمات الشرسة التي كانت تنصب عليهم. فبعض الدروز

الذين كانوا هابطين إلى ساحل بيروت استوقفوا وجردوا من سلاحهم. والمسيحيون في الجرد تحت حكم مشايخ آل عماد متخوفين من تزايد القوى التي تتجمع في المختارة في جوارهم القريب تركوا قراهم جملة في ٢١ نوار وهربوا إلى جهة البقاع عازمين على الوصول إلى زحلة، ولكنهم تبعوا بشراسة وأطلقت عليهم النار.

والآن حين لم يبق من شك في نية الدروز العدائية خلع مسيحيو لبنان ثوب المذلة. وفي ٢٧ نوار قدم من رجال زحلة ٣٠٠٠ من الأقوياء ليهاجروا قرية عين داره فنازلهم ٦٠٠ درزي بقيادة أحد مشايخهم على طريق دمشق وعندها بدأت أول مناوشة قانونية بين الطائفتين. وقد دامت الموقعة كل النهار وانتهت بالمضايقة الكلية للمسيحيين الذين تراجعوا باضطراب عظيم. أما الدروز فقد أتموا انتصارهم بسرعة فانتشروا في المقاطعة المجاورة، المتن، حيث كانوا أيضاً ناجحين فأحرقوا بعض قرى المسيحيين. وخلال كل الوقت الباقي من الحرب الأهلية التي دامت شهراً على التقريب كانت هذه المقاطعة مسرحاً دائماً للمصادمات العدائية بين الفئتين المتعاديتين بنجاح متبادل حتى أصبحت كل قراها التي تبلغ ستين قرية خراباً.

إن تأخر المسيحيين في التنظيم الحربي عن الدروز ظهر جلياً في المناوشة الأولى. فالأول (المسيحيون) تقدموا بدون أقل أمر وكانوا يتفرون يميناً وشمالاً، فقد كان كل واحد يسير حسب رغباته. وفي الموقعة قرب عين داره كانوا بلا ريب يطلقون النار على بعضهم بعضاً. وبينما كانوا منشغلين هكذا، أفاقوا ليجدوا أنفسهم متضععين ومحاطين تقريباً بالعدو. أما الدروز، فعلى خلاف ذلك، كانوا يتقدمون بهدوء إلى نقط معينة تحت قيادة زعمائهم الذين كانوا يؤدون لهم طاعة عمياء، فالمراكز المهددة كانت تراقب تماماً وإذا هوجمت فانها كانت تعزز بالقوة بسرعة مدهشة.

وفي هذا يكمن سر السيادة الدرزية على المسيحيين في الميدان. وكذلك فان تنظيماتهم وطاعتهم للنظام كانت أحسن. فالزعماء الدروز أوفر جرأة من زعماء المسيحيين. ولكن العامة في الطائفتين، في هذا المعنى، متعادلون ولو أنه كان للمسيحيين قادة بارعون ونفخت فيهم روح الطاعة، لما كان للدروز ما يفاخرون به. فهؤلاء أصبح عندهم ادعاء وهمي بالجرأة والشجاعة الخارقتين. زاد في إضعاف فخفته العجز الحربي في منازلهم. وقبل الانفجار العام بوقت طويل ركز خورشيد باشا معسكراً من الجيوش التركية،

بنفسه، وراء حرج الصنوبر الذي يقع تماماً قرب بيروت ويشرف على السهول الملاصقة. وهناك استقر كقائد ينتظر ببرودة التقارير اليومية. فلم تجر الآن أية محاولة كالسابق لتفريق المتقاتلين. وفي ٢٨ نوار أرسل المارونيون الثائرون في كسروان نجدة لأبناء دينهم المارونيين بقصد حمايتهم في قريتي بعدا والحدث مقر الأمراء الشهابيين على بعد ساعة من بيروت. وقد مروا على مجال الرصاص من أمام المعسكر دون أقل مضايقة. ومع ذلك ففي ٢٩ منه أرسل الوالي رسلاً إلى الأمير يدعوه بواسطتهم إلى ارجاع النجدة التي وصلت إليه مؤكداً له بشكل رسمي حمايته من كل هجوم من قبل الدروز، حامية كان قادراً عليها بكونه مجاوراً لهم. وهكذا فقد نفذت أوامره حالاً، وانسحبت النجدة وتبعها أكثر السكان الذكور الذين كانت ثقتهم بمثل هذه التأكيدات قليلة، وتخوفاتهم التي تحققت كلها في محلها.

وفي صباح ٣٠ نوار، هبط الدروز الذين كان بينهم وبين الأتراك تفاهم سابق والذين كانوا يعملون بإشارتهم من مرتفعاتهم حالاً إلى القرى المذكورة والتي كانت خالية الآن وبدأوا بمذبحة هائلة. ولكونهم صدموا بمقاومة خفيفة أو لم يصطدموا بشيء فان غزوتهم انتهت بسرعة ففي أقل من ثلاث ساعات كانت القرى تلهب والرجال والنساء والأولاد من المسيحيين يهربون بأقصى ما يكون من الذعر. وكان قد وضع سابقاً في هذا المركز مائة جندي ليكونوا عوناً للدروز في حالة فشل ما وهؤلاء اشتركوا الآن بملاحقة الهاربين.

واشترك أيضاً الخيالة الأتراك غير النظاميين في الملاحقة الشديدة فكانوا يمزقون كل مسيحي يقبضون عليه ويسلبون ويتعدون على النساء اللواتي تركهن الدروز دون أذية ما. كما وأن الأتراك بدأوا بأعمال تخريب قبل وصول الدروز بكثير. والآخر كانوا يدفعون أنفسهم إلى مهاجمة بيروت ولكن ثلاث طلقات مدفعية من معسكر الوالي أعلنت لهم أن العمل المطلوب منهم أنهي. وهكذا نزل الزعماء الدروز في مخيم الوالي حيث استقبلوا بتهاني حارة.

إن خسارة المسيحيين بالأرواح لم تكن كبيرة ولكن الأملاك المتلوفة كانت كميتها واهية فمحصول الحرير، الذي يتألف من آلاف أقات الشرائق أحرق أو نقل. والأيام التي تلت صرفها الدروز بنقل المنهوبات. فالبغال والحمير وحتى الثيران استخدمت لأجل

هذه الغاية، أمام برودة الاجراءات القانونية. وفي نفس الليلة مئات من المارونيين مع عائلاتهم هاربين من جبال الدروز وآتين إلى بيروت عن طريق البحر، طلباً للنجاة كانوا مفاجئين من الدروز والأتراك ومزقين تمزيقاً. فالآخر لم يتركوا ولداً ولا امرأة، وامتلأت الآن الجنائن في بيروت بجماعات الهاربين التعساء مضطجعين تحت الأشجار في كل الجهات. بعضهم تسيل دماؤهم وبعضهم عراة وكلهم في مراتب البؤس. هنا بدأت عاطفة الشفقة عند السكان الأوروبيين تعمل باجتهد كما وأن بعض المحمدين المحترمين تداركوا أيضاً أمر هؤلاء التعساء المساكين.

وعندما رأى القناصل الأوروبيين العامون الحالة التي غرق فيها لبنان من أهوال الحرب الأهلية وخوفهم العادل من تصرف خورشيد باشا، ساروا إلى مخيمه مجتمعين في أول حزيران وقدموا له من الاعتبارات ما افترضوا أنه أكثر مناسبة لإيقاظه للعمل بما يقضيه واجبه. أما هو فأظهر رغبته العظمى في وقف المناوشات. وشكا بشدة تلك التي دعاها الجمعية، المؤلفة في بيروت، التي تشتري وتوزع السلاح على المسيحيين بأنها سبب هذا الحرب، وقد توعد بإلقاء القبض على أعضائها وانتهى بأن طلب من القناصل ليعملوا كل ما في وسعهم ليمنعوا المسيحيين المارونيين من إرسال مساعدة لذويهم في القرى مصرحاً بأنه هو نفسه سيصدر الأوامر إلى الدروز لوقف الحرب من ناحيتهم.

وقد كان القناصل على استعداد تام ليتقدموا إلى العمل المتبادل، الذي، لو أنه عمل به من قبل الجانبين، لكان ضمن حالاً استتباب الأمن، فوعدوا بأن يستعملوا أقصى نفوذهم في الوجه الذي أراده الوالي. والأخير ربح بدهاء وسوء غاية نقطة حيوية. فباستعماله المحتلين الأوروبيين أداة بين يديه أبطل الاتفاق العام والتقدم من قبل المجموع المسيحي الذي كان استطاع حتى بعد ذلك أن يتحد ويقوم بمقاومة عنيفة. بينما كان كثير الانتباه، مع ذلك، حتى لا يرسل أوامر من هذا النوع للدروز الذين تابعوا بدون انقطاع منهمجهم الدموي الظامى.

كان سعيد بك جنبلات في هذا الوقت قد استلم قيادة جميع الدروز الذين كانوا نوعاً ما تحت حكمه في سفوح الجبل، كان الدروز على العموم على تقدير خاطيء مبالغ فيه للقوة التي يمكن للمسيحيين أن يوجهوها عليهم في الأزمنة الحاضرة وكانوا لذلك متخوفين كثيراً على مراكزهم الخاصة. إنهم كانوا يعرفون أن المسيحيين المقيمين بينهم

كانوا في كل معنى مساوين لهم بالشجاعة. لقد نظروا المصادر التي كانت منذ أشهر تنفق بتبذير لتزويدهم بالسلاح والذخيرة. لقد عرفوا الجهود غير المتوقفة التي كان الاكليروس الماروني والقادة المارونيون منذ مدة يحاولونها لإجراء اتفاق ودي ومحبية أخوية بين المسيحيين من كل الطوائف. جهوداً كانوا يعتقدون أنها ستكون نوعاً ما ناجحة ولهذا فقد كانوا يعتقدون أنه ليس في المعقول أنهم وهم لا يتجاوزون ١٢,٠٠٠ في عددهم يتمكنون من منازلة ٥٠,٠٠٠ محارب مسيحي يهجمون عليهم من كل الجهات مزودين بقوة اتحاد ومعنوية كانت غريبة عنهم في الحوادث السابقة.

والدروز شعروا عند ذلك بأن لديهم قوة واحدة كامنة، إذا هم استعملوها بمذاقة فانها ستعوض الفرق بالعدد - الخداع وقد استعملوها بحزم ودهاء إلى النهاية. وزيادة فقد كانوا يعرفون أن الأتراك هم سندهم وأنهم يعاونونهم جيداً عند الحاجة. ولكي يقوي سعيد بك ساعده دعا إليه دروز حوران من مسيرة أربعة أيام إلى لبنان. بكتابه إلى اسماعيل الأطرش زعيمهم العظيم مبنياً له عبارات مؤثرة المصائب الخطيرة التي استولت على دروزه الأمناء. فساكنهم قد أتلفتها النار وقضها السيف، ونساؤهم استبيحت وأولادهم شردت من قبل المسيحيين الشرسين، فباسم الله تعالى ولأجل ديانتهم العامة ليتقدم حالاً إلى إنقاذ الدروز الذين سيقضى عليهم كشعب. وهذا الكتاب الشهير أحرق عن زواياه الأربعة ليظهر الخطر العظيم - علامة اليأس القاتل.

واسماعيل الأطرش ودروزه عندما بلغهم هذا النداء المزعج هبوا كالنمور من مكانهم وتقلدوا سيوفهم وأقسموا بأن يغسلوا مخابلهم في دماء أعدائهم الظالمين العتاة. كان اهتمام الدروز الأعظم موجهاً نحو دير القمر حيث هربت جماعات كبيرة من المسيحيين من الجوار للاحتباء. وسكان تلك المدينة ولاعتقادهم بأنهم تحت رئاسة الحاكم التركي مباشرة والجيش المعسكر تحت أمرته تصوروا، بلا جدوى، أن التيار الحربي سيمر بهم دون إنزال أي ضرر. ومع أن رجالهم هوجوا وقتل أحدهم فأنهم كتبوا كرمياً منهم إلى الدروز أنهم كانوا راغبين في أن يبقوا على وفاق معهم وأنهم يغضون الطرف عن هذه التعديات. والأخر، بينما كانوا يبدون رغبة معادلة من جهتهم لضمانة السلام، استمروا يحومون حول المكان كالطيور الجارحة.

وفي آخر نوار تعجب مسيحيو دير القمر، عندما حاولوا أن يخرجوا إلى القرى،

لرؤية بلدتهم في حالة حصار فالشرذمات الدرزية كانت تواجههم في كل منعطف والطرق كانت مرابطة والمؤن قطعت عنهم. فالقمح في الحقول المجاورة قطع وحل بعيداً. انهم وثقوا بغباوة باعترافات الدروز بالصدقة، وبجماية الأتراك لهم فهم يقومون بأقل التدابير استعداداً للحرب انهم رفضوا الإصغاء إلى النداء الذي أرسل إليهم من مراكز مختلفة وعلى الأخص من المطران الماروني طوبيا بوجوب الانضمام إلى القضية العامة والاشتراك بالدفاع العام « فرجال دير القمر الشجعان هم ساعد المسيحيين وهل أنهم سيفقون متفرجين غرباء أمام مشاهد ذبح أبناء دينهم! » وقد اجابوا على كل هذه المعاتبات أنهم يريدون أن يقفوا على الحياد وأنهم بكونهم تحت نظر الأتراك كما هو الواقع، فلا فائدة، بل غير لائق بهم أن يشهروا السيف. وعندما هبت العاصفة وأحاطت بهم فجأة كانوا على عدم وفاق تام فيما يجب أن يعملوا. فلم يكن عندهم مؤونة ثلاثة أيام وهكذا وقفت المجاعة أمامهم وجهاً لوجه.

وأخيراً انفجرت العاصفة. ففي صباح اليوم الأول من شهر حزيران انقضت قوى آل جنبلاط وآل أبو نكد وآل عماد وآل حمادة المؤلفة من ٤٠٠٠ رجل، على المدينة بجملة عنيفة. أما السكان فلم يبق لهم من الوقت ما يكفيهم لمحاصرة المراكز المهمة. ومع ما هنالك من الأعمال التي كانوا يقومون بها بسرعة فقد قاموا بدفاع المستميت. استمر القتال إلى مغيب الشمس وتمكن المسيحيون من إبقاء أعدائهم خارج البلدة وإنزالهم بهم خسارة فادحة فقد قتل أكثر من مئة بينما كان هنالك عدد كبير من الجرحى. أما هم فلم يخسروا إلا اثني عشر وقد حارب عدد من الجنود التابعين للمعسكر في صفوف الدروز بينما رفض الحاكم التركي التدخل حتى أن المسيحيين اشترك نصفهم فقط - هؤلاء الذين كانوا في جوار مركز الهجوم، والقسم الثاني رفض الانضمام ومنع أيضاً امداد رفاقه بالذخيرة اللازمة. فالخيانة فعلت فعلها لأن بعضهم كانوا على اتصالات سرية مع آل أبي نكد أسيادهم السابقين. وكثيرون اعتقدوا أنهم بمحافظتهم على التصرف الحيادي يضمنون عطف الأتراك الخاص. وهكذا ففي أشد حالات الضيق كان المسيحيون مترددين ومنقسمين.

وفي اليوم التالي استسلمت دير القمر للدروز. والمسنون من المسيحيين سلموا شخصياً إلى مشايخ الدروز، وفي ٣ حزيران وصل طاهر باشا من بيروت بصحبة ٤٠٠ جندي،

فلاقاه مشايخ الدروز إلى ضواحي البلدة وهناك عقدوا اجتماعاً. وبعد الاستسلام أحرق الدروز ١٣٠ بيتاً ثم انسحبوا.. فتقدم إذ ذاك الباشا إلى السراي وجمع قادة المسيحيين وهاجمهم بلهجة شديدة فدعاهم فوضويين ومفسدين ونعتهم بمقلقي السلام العام، وقال لهم أنه عرف أن غايتهم كانت إدخال فرنسا وأخبرهم أن كل ما يحصل لهم كان عقاباً عادلاً لعدم موالاتهم وأنه يأمل أنهم سيصطلحون بعد هذا الدرس الكافي. وجواباً على اعتراضاتهم بأنهم أبرياء قال لهم: «الماضي مسامح ومن الآن فصاعداً أنتم تحت حماية حكومتي بسلام عودوا إلى أشغالكم الاعتيادية لا تخافوا أمراً ما فدير القمر سالمة كاستنبول».

سمح للمسيحيين أن يحتفظوا بأسلحتهم على أن لا يخرجوا من البلدة وقوافل البغال محملة طحيناً أرسلت إليهم من بيروت ولكن الدروز في الغالب كانوا يقطعون عليها الطريق فلم يصل منها إلا ما كان كافياً لحفظ الروح والجسد معاً، أما القمح القليل الذي كان في حوزتهم فلم يكن له نفع لأن الدروز قطعوا مجاري المياه ولم يبق للمطاحن ما يديرها. بقي الوالي في مركزه ثلاثة أسابيع تقريباً وأخيراً بالرغم من تضرعات المسيحية الملحة، رجع إلى بيروت، غير أن المذابح اليومية كانت تجري خلال مدة بقائه، فكل مسيحي يخرج إلى خارج البلدة كان يذبح حالاً وقد طلب عدد منهم النزوح ولكن طلباتهم رفضت بشدة.

أما سعيد بك جنبلاط فقد كان عند مهاجمته لدير القمر يدبر في آن واحد حقلاً أوسع للمناوشات، ففي صباح ذلك اليوم كان رسول يحمل كتاباً منه يدخل إلى مقاطعة جزين الآهلة بالسكان المارونيين. والمارونيون كانوا متلهفين لسمعوه يقرأ. فقد أكد لهم فيه بشدة، نيته الحسنة وصداقته فانهم أولاده وقد تعهد على نفسه بأن لا يصيبهم ضرر فليتشغلوا بإعداد محصول الحرير فليس هنالك ما يخيف فإذا حدث لهم أمر فانه هو المسؤول لأنه القوة الدرزية، والدروز بدون أوامره لا يجسرون على التحرك والرسول ترك المكان راجعاً يحمل كتاباً من السكان يعترفون له فيه بالفضل ويشكرونه على هذا الكرم النزيه.

ولكنه لم يكد يبلغ ضواحي القرية حتى كانت قوة من الدروز بقيادة سليم بك جنبلاط عددها ٢٠٠٠ درزياً تتقدم نحوهم وهي تنشد الأناشيد الحربية. والمسيحيون أخذتهم

الدهشة فلم يعرفوا إلى أية جهة يتحولون ولم يكن لهم من الوقت ما يكفي للاعتداد بأسلحتهم فالموجة غمرتهم إذ هجم عليهم الدروز بالسلاح الأبيض وفتكوا بكل رجل رأوه والنساء والأطفال هربوا برعب هائل كما هرب جميع السكان بصراخ اليأس الغريب إلى أقرب وادٍ تاركين قريتهم تلعب فيها النار، فقد قتل منهم اثنا عشر مائة رجل في مسافة ميلين فاللحاق كان سريعاً للغاية وعدد كبير التجأ إلى الكهوف وشقوق الصخور حيث مكثوا أياماً في حالة جوع مميت لا يجسرون على المخاطرة بالخروج.

وفي طريق صيدا سار عدد كبير انضم إليه كل الهاربين من القرى التي هوجت مثل هذا. الهجوم ولكنهم في الطريق هوجوا من قبل قاسم (العمادي) العميل المخلص لسعيد بك، مع عصابته وتبعوهم إلى أبواب صيدا حيث منعهم محمدو تلك البلدة من الدخول بينما عدداً من هؤلاء أسرع إلى الاشتراك مع الدروز وهنا بلغت المذبحة مداها فأكثر من ٣٠٠ مائة جثة نشرت على الشاطئ وفي الجنائن المجاورة وملاً صراخ النساء والأولاد الفضاء فبعضهن ذبح وبعضهن استبيحت أعراضهن، وتبعت الصبايا بعدد كبير مختلط من المحمديين والمتاوله الذين ظهروا فجأة وانقضوا عليهن انقضاض النسر على فريستها بينما أبى الدروز أن يقدموا على مثل هذا العار.

وعدة أديرة للرهبان والراهبات استلمت كتباً من سعيد بك متشابهة في معناها في اليوم نفسه ولكنها سرقت وغزيت ونهبت بنفس الخيانة. وشردت الراهبات عاريات تقريباً إلى الحقول وفي بعض الأحيان كن يتعرضن إلى تعديات شخصية. وأما الرهبان الذين لم يتمكنوا من تحبئة أنفسهم أو الفرار فانهم ذبحوا بلا شفقة. وبعضهم ذبحوا بهزء على أقدام مذابحهم. وفي دير مشموشة الغني، ثلاثون راهباً قطعت أوردتهم، أما النهب فكان في أقصى درجات الغرابة - فهنا آنية من ذهب وكاسات وصلبان مرصعة بالماس البراق. وغير ذلك كوم من المال - وهي الحاصلات المتجمعة منذ جيل قدرت قيمتها بـ ٨٠٠٠٠ ليرة أما هذه البنايات فقد حُرقت بعد أن نهبت تماماً.

وهكذا فجميع مقاطعات سعيد بك أطلق فيها السيف والنار واستمرت لمدة شهر أعمال التخريب والنهب والتقتيل، دون انقطاع. وفي صيدا أصبح الخوف هائلاً فالمسلمون كانوا في كل ساعة يصرون بقتل المسيحيين ولكن وصول دارعة صاحبة الجلالة (فيرفلاي) Firefly التي كان يقودها الكابتن مونسل Maunsell في ٣ حزيران والتدابير

الشديدة التي اتخذها الكابتن اللبق أرعبت نوايا الأول الخبيثة وضمنت الطمأنينة للآخرين. ومنذ ابتداء المصادمات أرسل قادة الجماعات المارونية في كسروان وحتى المطارنة كتباً ملأى بالعبارة المهيجة الصاخبة للمراكز المسيحية الرئيسية بين الدروز تدعوهم للقيام بدون خوف على مضطهدهم واعدتهم بمساعدة سريعة. فرجال زحلة ودير القمر وجزين وحاصبيا وراشيا أخبروا لأن يكونوا فرحين بهذه حرب دينية «ان علم الصليب، الذي باركه الكهنة، رفع عالياً بين أهاليج الفرح، والمارونيون رسموا الصليب على أكمام أيامهم، انهم.. أقوياء متحدين بشعور عام ويستطيعون أن يوزعوا قوتهم، ففي يوم معين ١٠٠٠٠ يسيرون في جهة و ٨٠٠٠ في جهة أخرى و ٥٠٠٠ في جهة ثالثة ماذا يخافون؟ لينهضوا ويضربوا بقوة فقضيتهم يجب أن تنتصر. وهنا استعاد المسيحيون معنويتهم وبدأوا ينتظرون منقذهم بينما كانوا يشاهدون الخطر مواجهاً لهم. غير أن هذه المساعدة الموعود بها لم تنفذ وفي ساعة الحاجة وجدوا أنفسهم متروكين ليقاوموا بمنتهى ما يقدرون عليه.

وقع أحد هذه الكتب في قبضة الدروز وإذ ذاك لم يعرف غضبهم حداً « هذه إذن حرب دينية فلتكن » هذا ما قالوه: « إن المارونيين يتهددوننا بالدمار، ليأتوا ولكن في هذه المرة إن شاء الله أعلام الدروز ستدق على أبواب طرابلس فالبلاد لنا أو لهم »، والدروز في الحقيقة شعروا بأن هذا النزاع يجب أن يؤدي إلى سيادة ناجحة دائمة أو خراب محتم وذل وهكذا أعلنوا الحرب الضروس. وقرروا في اجتماعاتهم السرية بأن لا يبقوا على أحد من الذكور المسيحيين فهذه الغنغرينة المارونية التي تتسلل إلى مجتمعاتهم السياسي يجب أن تستأصل من الجذور فالاسلام عند الحاجة ينهضون لمساعدتهم وإذ ذاك عندما يستأصل العنصر المسيحي من بينهم ترجع الأراضي التي اغتصبوها إلى أصحابها الأول، فهذا القسم من لبنان يصبح كما كان منذ القديم جبل الدروز.

أما في لبنان الشرقي فقد كان الدروز قد أتموا استعداداتهم وبدأوا يتخذون تدبيراً عدائياً. فالست نايفة شقيقة سعيد بك أخذت منه تعليمات خطية وكلمتها في كل وادي التيم الذي يشمل حاصبيا وراشيا كانت قانوناً، فالعقال الأشد تديناً يطيعون أوامرهم طاعة عمياء. والأمرء الشهابيون الذين كانوا يحكمون في هذه القرى، وكانوا معرضين دائماً إلى تعديات الدروز المضايقة لسلطتهم وحتى لتعدياتهم على ممتلكاتهم لم يروا

مناسباً أن يطلبوا معاضدة المسيحيين. رداً على الدروز، بل كانوا منذ أشهر أو بالأحرى سنوات طلبوا فرقة تركية من والي دمشق ولكن طلبهم رفض بعناد. وفي خريف سنة ١٨٥٩ أبلغوا لفرحهم ودهشتهم أنه أوجب التماسهم فأرسل إليهم عثمان بك مع ٥٠٠ جندي لمساعدتهم وهذا تساهل فوق العادة أعطي لهم لغاية، وفي الحقيقة كان معداً لإثارة الدروز وتبيح كل كوامن مقتهم للمسيحيين. فالأمير سعد الدين نفسه رافق الفرقة إلى حاصبيا.

ولما شاهد المسيحيون المقيمون في القرى حول حاصبيا أن الدروز في تلك البلدة ينقلون أمتعتهم، تملكهم الرعب فدعاهم الكهول في حاصبيا ليأتوا إليهم لأن المكان مكان سلام وأمان. وقد قبل الاقتراح وفي خلال الأسبوع الأخير من أيار سنة ١٨٦٠ كانوا هم وعائلاتهم ومواشيهم ومنقولاتهم يصلون إلى تلك البلدة من كل الجهات وأغلبيتهم سكنوا في الدار الكبير قرب السراي. وعندما أصبح الخطر قريباً اكتتب المسيحيون بخمس مئة ليرة قدموها إلى عثمان ليضمنوا اخلاصه. حتى أن النساء اهدينه أيضاً حلي وجواهر فأعطاهم أشد التأكيدات بصداقته وحمايته وهكذا هدأ روعهم قليلاً.

وباكر يوم الأحد في ٣ حزيران كانت القوى الدرزية ترى محتلة جميع الأعالي المشرفة على حاصبيا. ومنذ عدة أيام سابقة كان عثمان بك دائماً في بيت الست نايفة حيث كان بعض جنوده معسكرين. ففي الحقيقة لم يكن لعمل شيئاً بلا إشارة الست نايفة. حتى وأن سعيد بك بنفسه كان قد أتى من المختارة وقابل عثمان بك والآغا التركي اللذين كانا صاحبي الأمر في راشيا على نبع بين هذين المكانين. والمسيحيون فور رؤيتهم الدروز طلبوا من عثمان بك القيام بالعمل وقد بادر إلى المفاوضة معهم فأرسل موظفاً ليعرف نواياهم وقد عاد هذا بالجواب أنهم على وشك الهجوم. إذ ذاك أخبر المسيحيين بوجود الخروج للمدافعة عن أنفسهم وأنه على استعداد عند الحاجة لمساعدتهم.

تقدم منهم بضع مئات وانتشروا في مركز ممتد معتقدين بأنهم ينتشرون حول البلدة كلها - جماعات غير منظمة من غلمان مرد وشبان بدون أمر أو قائد. فالقادة الذين كان يجب أن يكونوا على رأسهم مكثوا في السراي خاملين ملتصقين بمحاثهم الأتراك. تبودل اطلاق النار لمدة نصف ساعة بينما حمل الدروز حملة واحدة على نقطة معينة واستاقوا كل شيء أمامهم فهرب المسيحيون المندحرون جملة إلى السراي حيث سمح لهم بالدخول، أما

عثمان بك فتظاهراً بتنفيذ وعده أطلق رشقين من القنابل تهويلاً. وأصيب عدد كبير من المسيحيين الهاربين واثنان أو ثلاثة من الدروز من المتقدمين فلقوا حتفهم والآن انتشر الدروز في جميع البلدة وفي مدة ساعتين كانت كلها مغمورة باللهيب.

وعند ذاك ذهب عثمان بك إلى الست نايفة وسأها عن رغباتها. فطلبت تسليماً شاملاً عاماً من المسيحيين وتسليم أسلحتهم فأعطاهم عثمان بك بموافقتها، تعهداً خطياً يؤكد لهم فيه اهتمام الحكومة من أجل سلامتهم الشخصية. وفي الصباح التالي أتت صحبة عثمان بك إلى السراي. وقبل المسيحيون بالقوة الترتيبات القاتلة، كانت أسلحتهم مكمّمة كلها في وسط الساحة الكبرى. وكان أحسنها يؤخذ بواسطة الدروز والأتراك والباقي، وعددها ثمانمائة رُزمت وسُلمت إلى الاكارين الدروز لتنتقل إلى دمشق في الظاهر ولكن هذه أيضاً أخذها فيما بعد ناقلوها.

والآغا التركي الأمر في راشيا وضع حالاً بعد مقابلته مع سعيد بك نطاقاً من الجند حول راشيا لمنع أي تسرب ممكن من قبل المسيحيين إلى الخارج. وقد حاول عدد كبير الهرب إلى حاصبيا غير أنهم صُدوا وصباح الرابع من حزيران أطلق الجنود الأتراك إشارة فهوجت البلدة حالاً من قبل ١٥٠٠ درزي وتشبهاً بما كان في جزين والأماكن الأخرى فقد أعطي المسيحيون تعهدات بحسن نوايا أعدائهم. فانصرفوا كلهم إلى أعمالهم العادية بطمأنينة تامة وهكذا وقد أخذوا على غرة فلم يكن معهم الوقت الكافي ليأخذوا سلاحهم من بيوتهم. خلا مرة واحدة، هناك قاموا بدفاع شديد طوال النهار وأنزلوا خسائر مميتة بغزاتهم الكثيرة العدد. وعندما ألقى الليل سجوفه عليهم وكانوا قد استنفذوا جميع ذخيرتهم تركوا حصاراتهم ولجأوا إلى السراي حيث كان الأمراء الشهابيون قد تقدموهم فاستقبلهم أصدقاؤهم الأتراك بذرعان مفتوحة ودعوهم كلهم إلى الدخول وأغلقوا عليهم الأبواب مقسمين بأن يحموهم ولو كلفهم ذلك أرواحهم.

وفي الوقت نفسه كان المسيحيون في سرايا حاصبيا يتذوقون يأساً مزدوجاً السجن، والجوع. أما الماء فكان ينال بصعوبة. والخبز كان أكثر ندوراً والقليل الذي كان ينال كانت أثمانه باهظة. أما طعامهم فقد كان نخالة ولوبياء مجففة وأوراق العنب. لجأ النساء يأساً إلى قطع ذخائرن وتقدميها للجنود الأتراك لتحركن فيهم الشفقة وتوجهت الأنظار الآن إلى الست نايفة المنقذ الوحيد. فذهبت النساء والبنات إلى بيتها واندفعن نحوها

يجنون فرمين أنفسهن على قدميها وبعبارات محزنة من الألم التمسن منها أمراً بإخلاء سبيل آبائهن وأزواجهن. ولكنها كانت باردة وقاسية كالرخام. غير أن بعضاً منهم كن شركائهم في القرى المجاورة في الأراضي خاصة سليم بك صهرها. هؤلاء خلصوا وأخذوا إليها لأنهم لو قتلوا لما بقي هنالك من يشتغل أرضهم. وعدا عن ذلك فقد ارتأت أنها بحماية بعضاً منهم تتمكن من أن تشير إليهم بعظمة، عندما يأتي يوم الحساب الذي لا بد منه، كبرهان على أنها تدخلت شفقة منها ورحمة لصالح المسيحيين.

وصلت أخبار هذه الحوادث إلى دمشق فذهب رؤساء الكنيسة الروم والمطارنة والاكليروس والقناصل الأوروبيون جملة إلى أحمد باشا وطلبوا تدخله الحازم ومساعدته، فصدموا بعبارات التأسف لضعف القوة الحربية في حوزته واخبرهم أنه سيكتب إلى مصطفى باشا في حوران ليرسل فرقة إذا كان في الإمكان إلى حاصبيا. وفي ذلك الوقت لم يستطع مصطفى باشا أن يضعف فرقته لأنه كان بحاجة إلى كل رجل ليتمكن من إخضاع العربان الثائرين. وهكذا امام هذه الأعداء والمحاولات التمس القناصل صدور أمر فقط، إلى عثمان بك لإحضار مسيحي حاصبيا وراشيا إلى دمشق. والوالي لم يكن قادراً على التخلص من هذا فصدر الأمر. وقد حمله معاونه (أركان حرب) الخاص إلى كنج الصمد - شيخ درزي موظف في الحكومة كان معززاً بقوة من الشرطة للمحافظة على الأمن في البقاع - يحمل أمره إليه بالتقدم إلى حاصبيا وضمان تنفيذ أوامره وهذا الموظف العام الحازم النشط الذي كان بنوع خاص موظفاً بناء على إشارة منه عند أحد باشا، كان مشغولاً في الآونة الأخيرة بإتلاف سائر البقاع بالنار والسيوف وإحراق جميع قرى المسيحيين والفتك بكل مسيحي يصل إليه. وعند استلامه الأمر تقدم مع الضابط إلى قرية القرعون قرب وادي التيم فجمع المسيحيين وهنأهم بسلامتهم وعلى رأس ١٥٠ فارساً منهم سار إلى حاصبية.

وفي الطريق انضم إليه علي بك حمادي معتمد سعيد بك جنبلاط الذي كان قد أرسل إلى المختارة فاستلم التعليقات وكان الآن في طريقه إلى حاصبيا على رأس قوة مؤلفة من ٣٠٠ رجل فوصلوا إلى الجوار ظهر اليوم العاشر من حزيران وكانت أصوات طبولهم تتجاوب في بطن الوادي. وكانت أسلحة الدروز وأعلامهم المنتصرة تلمع وتحقق تحت أشعة الشمس وفوق المدينة السوداء المتهدمة. وصلوا إلى السراي وترجلوا. وعندما

دخلوا دفعوا الهاربين من القرعون إلى الداخل ثم أعطوا عثمان بك أمر أحد باشا فقراه بصوت عالٍ. وكان فرح المسيحيين لا يحده، فقد أتت ساعة الخلاص أخيراً وأخذت الهتافات « بيعيش السلطان يعيش حماتنا الكرام » تنفجر من كل شفة. وقد رموا أنفسهم على بعضهم بعضاً يتبادلون القبلات الحارة وكلهم أخذوا يلتقطون الملابس القليلة التي كانوا تركوها كما وأن الضعفاء والعجزة تمادوا بطلب حيوانات تنقلهم فلا بد من أنهم لا يتركون ليموتوا في الطريق انهم يريدونهم يوماً واحداً فغداً سيكونون في دمشق.

وبعد ذلك ذهب الزعمان الدرزيان ليقدموا اعتباراتها للمست نايفة فاستقبلا بحفاوة لقد كان الوقت حرجاً وكان عليها أن يقوموا بمهمتها، فكل شيء كان محصوراً بالمست نايفة وما كان سيقال كان يجب أن يقال بسرعة وكان على علي حمادي أن يقدم استعطافه نهائياً، ربما استعطافاً موثقاً به، وقد قدمه. لقد كان سعيد بك غير لين غير أنه في الإمكان الآلة قلب المرأة « هل أن كل المسيحيين سيدجون؟ » قال باهتمام محدقاً في وجهها: فكري بعائلاتهم وأراملهم وأطفالهم الأيتام وترفقي، اشفقي على هؤلاء الشبان الغلمان المرد أقضي على الزعماء الأكثر هياجاً والأكثر ضرراً انزلي وشاهد بهم بعينيك يعدمون على مرأى من ذويهم، إذا أردت ولكن اعفي آه اعفي عن الباقيين! » « غير ممكن! » بهذا أجابتهم ورفعت كتاب أخيها وقالت « إن أوامر أخي جازمة وصريحة، فلن يترك مسيحي حياً من سن سبعة إلى سبعين سنة » ولم تتلفظ بكلمة أخرى، وهكذا انصرف الزعمان إلى السراي حيث كان الدروز عندها مجتمعين بهياج.

رمي القناع إذ ذاك بعيداً وأمر عثمان بك بإعلان النفي، فوقف الجنود على السلاح وكانت السراي طوابق عالية ذات غرف متسعة وعرصات فسيحة وعدد كبير من المسيحيين كان منتشراً فيها جميعهم يستعدون بفرح للرجل. أمر الجنود بالذهاب إلى فوق وسوقهم إلى الساحة المركزية وبفرح وحشي ركض الأتراك وفتشوا كل زاوية ونجأ على التعساء المساكين وحينئذ أجبروهم على النزول برؤوس الحراب يضربونهم ويهينونهم ويدفعونهم ويمزقون ثياب الأطفال الذين كانوا يتعثرون في سيرهم وتبعهم النساء والأولاد برعب غريب يصرخون ويولولون ويأملون حتى إذ ذاك أن يعطف عليهم فينجوا.

وهكذا فتحت أبواب السراي على مصاريعها ودخل الدروز بصراخ عال، ولكن كان

هنالك انتظار بعد، فقد كان الجنود لا يزالون مختلطين بالجمهور وقد أعطيت لهم المهلة لينسحبوا وبعد بضعة دقائق أعلن أن الساحة أصبحت جاهزة وصعد الأتراك جميعهم إلى الممرات والسطوح حيث صفوا أنفسهم كمتفرجين في تياترو منتظرين مشهداً عظيماً. وعند ذاك ابتدأت المذبحة فأطلق الدروز من أماكنهم رشقاً عاماً ووثبوا على المسيحيين بالبطقانات والفؤوس.

كان أول ضحية يوسف رئيس كاتم سر الأمير سعد الدين فتعلق بركبتي عثمان بك، عثمان بك الذي كان قد دفع له مئتي ليرة بصعوبة ثمن حمايته ولكن البربري رفسه بقدمه على فمه فراح يتدحرج فأمسك وقطع أرباً أرباً مبتدئين بأصابع يديه ورجليه والأمير سعد الدين قطع رأسه بعده وأرسل تذكراً حربياً إلى سعيد بك، وبالتدريج كان المجموع المتحرك مقضياً عليه. فكثيرون كانت تقطع أنوفهم وآذانهم وشفاههم وهكذا كانوا يعذبون قبل الضربة الأخيرة بينما التصقت النساء بالجدار وقد ملأن الفضاء بصراخهن فإذا أرادت احداهن أن تخلص من تحبه كانت تقطع تقطعاً، ومع هذا فكثير من الأمهات كن ينحنين ويحتضن أولادهن فتضمه الواحدة منهن إلى صدرها محاولة أن تخفيه في رداءها وعندما تُكتشف قابضة عليه بجنون وتقاوم مقاومة تستطيعها الأمهات فقط. كان السيف وحده القادر على حل ذلك الانضمام وتفكيك تلك القبضة الشديدة. والأم والولد كانا يقضيان من ذلك الجرح القاتل وتمتزج دماءهما معاً.

حاول في الابتداء بعض المسيحيين النجاة من الباب، فألقي القبض عليهم جنود الأتراك وجردوهم من ثيابهم ثم أرسلوهم إلى الدروز وفي بعض الأحيان كانوا يأخذونهم بأنفسهم وبينما كانت المذبحة قائمة كانت الأروقة تردد العبارات الوحشية، « اعطه ضربة إكراماً للفرنسيين، وأخرى إكراماً لقنصله، لا شلت يداك! »، هذه كانت المناداة التي انتشرت إذ ذاك أما الشهيد فلم يخرج منه حتى الأنين وما سمعت صلاة ما للرحمة فقد كان كل واحد، عندما يأتي دوره يقدم جسده ليقتل، طالباً بلطف ألا يعذب وكان يكتفي بأن يقول بجملة « باسمك يا سيدي المسيح » ويردد قاتله « أي أدعو مسيحك وانظر إذا كان يقدر أن يساعدك الآن ألا تعرف أن الله درزي؟ ».

وقد جاءت الست نايفة ودخلت السراي بعد مغيب الشمس بساعة وكان الظلام دامساً، فطلبت قنديلاً ولما أحضر لها أمرت بأن يحمل أمامها، وأخذت لمدة طويلة تسرح

نظرها بهذا المنظر المريع ثم قالت : « لقد أحسنتم أيها الدروز الأمناء هذا ما كنت انتظره منكم » وإذ ذاك تقدمت منها بعض النساء ، والتف حولها الأمراء الشهابيون الذين كانوا مختبئين في بيوت الحرم وقبل هؤلاء أقدامها فطلبت منهم أن يتبعوها . بينما كان الأتراك في كل هذا الوقت ينتقلون في الساحة كالمتفرجين تحت ستائر الظلام يقلبون أجسام الموتى طلباً للنهب وحينما كانت تظهر لهم أية علامة للحياة كانوا يعالجونها « بضربة الرحمة » .

الفصل السادس

١١ حزيران (يونيو) ١٨٦٠ مذبحه كناكن يقوم بها
اسماعيل الاطرش - ١٤ حزيران (يونيو) زحلة تسقط
بعد حصارها - ١٩ حزيران ذبح الذكور في دير القمر .

الفصل السادس

ان اسماعيل الاطرش ودروزه الذين يبلغون ٣٠٠٠ رجل والذين كان نصفهم خيالة، تحركوا بعد عشرين واربع ساعات من استلامهم الكتاب المحكي عنه في الفصل السابق من سعيد بك جنبلات. وقد باروا راسا إلى وادي التيم الذي وصلوه في اليوم الثالث. وصلوا في اليوم الثاني من سفرهم الى كناكر، وهي بلدة مسيحية كبيرة على بعد عشر ساعات من حاصبيا حيث هرب عدد غفير من المسيحيين الذين كانوا يشتغلون في الحصاد املاً بالحماية، ولما كان الدروز متشوقين ليلحموا سيوفهم ذبحوهم جميعاً وفي اليوم الحادي عشر من حزيران مروا تحت مرتفعات راشيا عازمين على التقدم الى زحلة. ولكن، لكونهم دعوا ليصعدوا الى القرية السابقة الذكر بهتافات عالية فقد تحولوا وصعدوا اليها وخطوا رحلهم امام السراي وهناك، كان الاتراك لا يام خلت يتلهون بسرقة وسلب كل ما كان يملكه هؤلاء المسيحيون البؤساء الذين كان عددهم ١٥٠ مسيحياً والذين كانوا ينظرون اليهم بثقة شديدة معتبرينهم منقذهم، وهكذا كانت فريستهم جاهزة للذبح.

عقد اسماعيل الاطرش اجتماعاً خاصاً مع الآغا التركي وبغمة عين فتحت ابواب السراي ودخلها الدروز وما حدث كان صورة مصغرة لما حدث في حاصبيا في اليوم السابق. والامراء الشهابيون، الذين كانوا محمدين ذبحوا أيضاً فان ذنبهم القاتل كان انهم اصدقاء المسيحيين. ولما انتهت هذه الرواية الدموية توحدت قوى دروز حوران مع قوى دروز وادي التيم وسارت الى البقاع، وفي الوقت نفسه كانت الجيوش التركية المعسكرة في حاصبيا وراشيا تنتقل الى دمشق حيث باعوا علنا منهوباتهم في الاسواق مثل: الساعات، والجواهر والمعاطف. والآنية الكنسية، واثواب الرهبان المزركشة الثمينة.

كان المنظر العام الذي استقبل به البقاع اسماعيل الاطرش ومجموعة محبينا امالمهم ومفحمي ظلمهم للاخذ بالثأر؛ فقد كانت كميات من الدخان الاسود تتصاعد من كل جانب من

من القرى المحروقة والمغزوة. ومن حين الى آخر كان يمر بهم جماعات من المسيحيين المذعورين مسرعين الى اقرب كهف في الجبل أو مخبأ في الادغال أو مغارة بين الصخور فقد كان الرجال يقتلون في اماكنهم وكانت النساء تنهب ويخلى سبيلها. وعم البلاء حتى سهول بعلبك التي ارسلت الى السماء لهيب الخوف والرعب.

فهناك أيضاً كان المسيحيون يصادون كما تصاد الوحوش البرية. وكانت بيوتهم تحرق ورجالهم تذبح ونساؤهم تستباح. فإن الاتراك كانوا يمارسون التهلكة. اما المتاولة الشرسون فقد كانوا يتنافسون في القسوة بالذبح بينما كان الضابط القائد على رأس غير النظاميين يشق الطريق مشرقاً واضحاً في الطليعة حتى ارتفع من الجوامع والمآذن النداء الدموي واختلط مع دعوة المؤذن للصلاة كما وانه كان بالامكان ان يسمع نداء يبلغ المؤمنين انه بموجب فرمان امبراطوري كان المسيحيون معدين للتلف والدمار وبيوتهم وممتلكاتهم غنيمة قانونية.

وهكذا كانت الحرب الاهلية تضطرم في لبنان منذ ثلاثة اسابيع للقضاء على المسيحيين المقيمين بين الدروز. اما امراء ومشايخ المارونيين الذين كان بإمكانهم ومن واجباتهم ان يتقدموا لمساعدتهم فلم يقطعوا ولا مرة واحدة الحدود التي تفصلهم عن الدروز. فالخمسون ألفاً من المقاتلين الذين عربدوا عالياً مكثوا في حالة معيبة من الخمول. فآلاف كانوا يجتمعون في نقطة معينة ضمن حدودهم، ويضعون بلا فائدة عدة ايام في انفاق المؤن التي كانوا احضروها معهم فيسألون الزيادة في القرية التي يعسكرون فيها وعندها ينسحبون تدريجاً واخيراً يختفون.

والقائم مقام المسيحي الذي كان قد باع نفسه للاتراك الح علي الامير الذي يخص عائلته لكي لا يشترك في النزاع فبدونهم، لا يتحرك اتباعهم ومريدوهم. بينما غالبية الاول كانوا يرغبون في نجاح الدروز، فان النزعات الديموقراطية التي تبرهن انها كانت قاتلة للسيادة الاقطاعية لمشايخ آل الخازن في كسروان يمكن ان تبرهن بقوة عداءها لسلطتهم. فقد كان فلاحوهم اظهروا علامات الموافقة ان لم يكن علامات الثورة. فانتصار الدروز كان انتصار الحكم الاقطاعي ومن المؤكد أن الدروز وفي اكثر من مناسبة قدموا خدماتهم لحفظ حقوق الامراء المارونيين الاقطاعية عندما كانت تهدد بثورة ما.

فاعداء الدروز الالاء لم يكونوا الارستقراطيين المارونيين بل كانوا الاكليروس

الماروني. فالاول لم يقوموا، من قلوبهم، بأية حركة ضدهم اما الامراء الشهابيون، والذين ليست له اية ميزة اقطاعية، ولكن لأهميتهم من حيث جاه اسمهم فقد كانوا اينما ظهروا في هذه المشاهد ادوات فقط في ايدي الآخرين وقد جرّوا بواسطته على انفسهم قسماً كبيراً من نقمة الدروز وحقدهم. فواحد من مشايخ المارونيين في الشمال لم يتحرك ابداً. وفي الحقيقة فقد تقدم واحد منهم باستعدادات كبيرة وقوة كبيرة وتهديدات اكبر واخيراً احتج، بمنع القنصل له عن التقدم كعذر لجبنه وعدم كفاءته. وتحت هذه المؤثرات لم يكن من المدهش ان يحتاج الدروز ساحة القتال.

لقد كان كل شيء الان يضمن لهم سيادة ظافرة، مما لم يكونوا بعد قد نالوه ابداً، او ومض في خاطرهم نيله حتى بصعوبة. غير انه بقي للمسيحيين معقلان دير القمر وزحلة واحدة منها خضعت والاخرى متكبرة مستهترّة كالعادة فاذا دقت اعلامهم هناك فالمسيحيون في جبال الدروز سيصبحون فيما بعد ذلك خدمهم وعبيدهم. وهكذا فقد كانت جميع قواهم توجه الى زحلة. فتجمعت القوى الدرزية من كل النواحي حول البلدة المنشودة، اذ عسكر اسماعيل الاطرش على بعد ميلين منها وانضم اليه حلالاً جماعات كبيرة من البدو والاكراد جذبوا الى الموقع كما تجذب النور برائحة الجيفة والمتاولة من بعلبك تحت قيادة امراء بيت حرفوش كذلك وعدوا بتعاقد عظيم.

واذ رأى عقلاء المسيحيين في زحلة ان العاصفة على وشك الانفجار عليهم كتبوا بعبارات مؤثرة الى القناصل الاوروبيين العامين يلتمسون منهم تدخلاً حازماً مع خورشيد باشا حتى يرسل قوة حربية لتحميهم فأمرت على الاثر فرقة تركية بالسير الى هناك ولكن عوضاً عن ان تدخل البلدة وقفت على مسافة ساعتين منها وفي مركز يمكنها، عند الحاجة من الاشتراك مع الدروز، والقائد ارسل، بعد وصوله بوقت قليل يطلب مشايخ الدروز الرئيسيين وبقي معهم في اجتماع ودي طول الليل، وباكراً في الصباح عاد الزعماء الدروز الى مراكزهم متهيجين كثيراً وواثقين بلا ريب بالاحترام الكلي والعطف العملي من قبل حلفائهم الودودين الاتراك.

اما سكان زحلة فقد كانوا الان منهمكين بأخذ التدابير لدفاع يائس. فقد كانت البلدة حسب تقديرهم منيعة لا تؤخذ. وقد كانوا يشجعون بعضهم بعضاً بأعادة ذكر كيفية هجوم الدروز عليها في سنة ١٨٤١ والتطامهم بها كما تلتطم الامواج بالصخور ثم

تفرقهم عنها كما يتفرق الزبد؛ وكيف ان اجراس كنائسهم كانت تتجاوب باعجاب في تلك المناسبة ان مريم العذراء نفسها كانت تتدخل لصالحهم، وحينذاك بتجديف شديد المطابقة لامثال تلك الاعتقادات الكافرة اطلقوا بنادقهم في وجه السماء الفسيحة هاتفين « ان الله نفسه لا يستطيع ان يأخذ زحلة ».

هكذا كانت العريضة الهائجة عند مسيحي زحلة فقد سبق ان عصوا قائمقامهم وقاموا بثورات ضد امرائهم متمنعين عن دفع المستحقات القانونية. وعينوا بلدية خاصة بهم وكما تكون الحالة العامة في كل مجموع يخرج عن حدود النظام، كانوا مفرقين منقسمين الى احزاب يترصد كل منها الفتك بالآخر وفي بعض الاحيان يفتكون فعلاً ببعضهم بعضاً ولا تجتمع كلمتهم حتى امام الازمات الخائفة.

لقد كان لهم، مذ ان كبرت بلدتهم وتزايد عددهم سمعة حسنة ومقاماً سامياً فزحلة كانت درع المسيحيين ومصدر الرعب للدروز وفي الحقيقة، ففي منطقة معينة من سكانها، لم يكن اي مسيحي اياً كان الوقت الذي يأتي فيه، يهان أو يعاقب وكان الدروز ينظرون اليها بتأثر. فليس من السهل التحرش بها ولكن مذ الحرب كان الان يتزايد وكان لا بد من حك معدنها على بوتقة الامتحان. وعندما تأكد اقتراب الدروز عقدوا اجتماعاً عينوا فيه زعماء ووظائف ولكن الاوامر التي كانت تستقبل بفرح في اللحظة الأولى كانت تعصى في الثانية وان حماس الصباح كان يتلاشى امام، منازعات التحاسد والاثام بالخيانة والمغامرات التي كانت موضوع مجادلاتهم المتبادلة، في المساء. ولكن السحابة كانت تتجمع بسرعة فالاعداء كانوا على الابواب وكان من الضروري ان يعملوا شيئاً. وفي ١٤ حزيران تقدم مئتا (٢٠٠) خيال و ٦٠٠ مشاة الى سهل البقاع لملاقات العدو وكانوا يرون من مسافة ساعة. والمسيحيون غير مكترئين بالنظام، ومتعامهين عن الخطر، انتشروا غير هيابين في الحقول فالبعض كانوا واقفين والاخر كانوا يخططون الخنادق وابدأون بأسعار نار حامية. اما الدروز المشاة فقد لجأوا الى المناوشة جماعات متراسة ووقفوا اطلاق النار تاركين الميدان في هذا النهار لفرسانهم، والاخر وقد انضم اليهم جماعات هائجة من العرب والاكراد جروا حولهم بغرابة وطوقوا بسرعة المسيحيين المقاومين من كل الجهات واخذوا يمسخونهم واحداً واحداً. وهكذا اصبح انهزامهم السريع عاماً وكانت خيول المسيحيين تركب وتشرّد وقد عاد العرب والدروز الى معسكرهم يحملون سبعين رأساً من

رؤوس المسيحيين على رؤوس حراهم وفي اليوم الثاني قام المسيحيون بهجوم اخر في مجال افصح ولكن بنفس النتيجة. والان، الزموا انفسهم الدفاع عن النفس.

وعلى اتصال بزحلة، ملاصقة الى درجة تمكننا من تسميتها ضاحية تقع المعلقة مقر قائمقام البقاع التركي ومعسكر الفيلق التركي الصغير وهؤلاء كانوا بلا ريب مدربين للقيام بقسطهم والمسيحيون هنا كما في كل مكان كانوا قد بينوا مخاوفهم واضطرابهم الى الموظفين الاتراك القريبين منهم وكانوا يستحصلون، بنفس الطريقة، على اعظم التأكيدات المفرحة من نيتهم الحسنة وعطفهم، أنهم كانوا اتباع السلطان، والجيش الامبراطورية كانت مكلفة بمحايثهم. وفي ١٦ منه وصل الى المعلقة موظف من قبل خورشيد باشا ليستطلع حالة المسيحيين في زحلة باعتبار انه يرغب في ان يقدم لهم كل مساعدة ومدد يمكن أن يحتاجونها. والمسيحيون الذين كانوا الآن في اعظم حالات يأسهم استقباله بفرح وامتنان والتمسوا بالخاح زيادة عدد الجيوش. وفي الصباح تركهم بعد أن قطع لهم وعوداً بالاسراع في تعزيز القوة.

وفي طريقه راجعاً الى بيروت التقى بعصابات من الدروز بين الحين والآخر ينشدون اغانيهم الحربية ويسرعون نحو مشهد القتال فكان يقول لهم: « الى الامام الى الامام الى زحلة » ثم يستطرد مشيراً الى تلك الناحية « غداً سأكون معكم » وبعد مقابلة دامت ساعة بينه وبين خورشيد باشا عاد، عملاً بوعده بجند أكثر، ولكن ليس الى زحلة. فالمسيحيون في تلك البلدة المحاصرة كانوا يُنصحون يومياً من القائمقام التركي بترك السلاح والاتكال عليه وعلى الجيوش التركية تلك التي كانت قد صارت في متناول اليد. وبعملهم هذا كما قدم لهم، يقومون بتصرف سلمي ويقدمون اشارة غير مجادل فيها عن نواياهم الودية ويلقون التبعة ومسؤولية الحرب على الدروز وحدهم واذا بعد ذلك تجاسر اولئك على مهاجمتهم فان الجيوش الامبراطورية ستصدهم وتلحق بهم.

بدأ عدد كبير يميل الى هذا الاقتراح المعقول الذي بواسطته تحقن دماؤهم الخاصة وتضمن السلامة العامة ولكن الاكثية قررت انه من الافضل الاعتماد على أيا منهم الخاصة والموت دفاعاً عن الشرف والايان وانهم، في حالة فشل محتم، ما دامت الجبال خلفهم، يلجأون اليها عند انقطاع الامل، مع عائلاتهم، وهكذا برق نجم سعدهم، فلو انهم سلموا سلاحهم ومكثوا في اماكنهم لكانوا ذبحوا ولم يبق على رجل منهم.

وفي صباح الثامن عشر منه هجم الدروز بمناوشات بارعة واعمال راي. فقد استمر اطلاقهم النار مدة اربع ساعات من الجنائن الممتدة على موازاة حضيض القرية. فجمع المسيحيون كل قوتهم في تلك الجهة وحاربوا بشجاعة عظيمة فإن مجمل قوتهم كانت ٤٠٠٠ رجل بينما كان عدد الدروز وحلفاءهم يبلغ ضعف هذا العدد. وبالحال شوهه فريق مؤلف من ١٢٠٠ رجل يهبطون من المرتفعات تدريجاً ويتقدمون غير مكترئين بالنار التي القيت عليهم، سيوفهم مسلولة في ايديهم. وبالرغم من أنه قتل عدد منهم فانه لم يوقف حركة تقدمهم شيء وفي اقل من نصف ساعة كانت العصابة في قلب البلدة وبينما اشتبك بعضهم بالعراك وجهاً لوجه مع المسيحيين في الشوارع اضرم الآخرون النيران في البيوت. فامتدت النار بسرعة. وهكذا اصبح الحريق عاما اما المسيحيون فتولاهم الرعب وتركوا مراكزهم وبادروا الى الفرار.

والآن في وسط معمعة القتال كان صوت الدروز ينادي بوضوح لا تمسوا النساء، لا تدمسوا النساء بأمر من زعيمنا خطار عماد: ان كل من يمس امرأة يقتل. وتهياً حرس درزي في الحال لأخراجهن بسلام من مراكز الخطر. ومع ذلك فان كل ذكر كان يلقي القبض عليه ما عدا الاطفال، كان يذبح بلا شفقة. والسواد الاعظم من الجيش التركي اقترب من الدروز كثيراً عندما تقدموا الى الامام من داخل البساتين بينما عدد كبير من الجنود اختلطوا في صفوفهم واشتركوا في اطلاق النار واما سكان زحلة الباقون فقد هربوا الى الجبال الشمالية عند غروب الشمس واصبحوا حالاً في مقاطعة المارونيين حيث لم يهتم الدروز في ذلك الوقت في اتباعهم.

وانتشر خبر اخذ زحلة انتشار النار في جميع لبنان، فاستقبله الدروز بفرح لا يوصف والمسيحيون بحزن وخيبة واعتقد الجميع ان المنازعات الآن انتهت. قد يمكن أن يحدث معارك دموية بعد ولكن القضية المسيحية ضاعت بشكل مخجل وجهالة. فالخيانة التركية والجبن الماروني سببا خرابها. فمع وجود ١٥٠٠٠ ماروني شاكى السلاح على بعد ست ساعات من زحلة لم يتقدم واحد للدفاع عنها. وفي خلال هذه الحوادث القصيرة بل الطارئة لم يخطأوا ولو مرة واحدة باجتياز الحدود الى المقاطعة الدرزية لنجدة ابناء دينهم. انهم كانوا ضحية ادعاءات المارونيين الفارغة وانهم غسلوا بدمائهم خيانة ارستقرايتهم الجشعة وهذيان كهنتهم المتعصب الذليل وثرثرته الفارغة.

لقد سقطت زحلة ولكن ما دامت دير القمر واقفة فالانتصار الدرزي كان لم يزل، في نظرهم، غير تام وعليها الان، هجم الدروز كالذئاب المفترسة. لقد كان حقيقاً انها سلمت ولكن الاوامر للاخذ بالثأر لم تعرف قانوناً انسانياً أو الهياً.

وفي ١٩ منه بدأت اقسام متفرقة من الدروز تدخل البلدة وكانوا حيثما يجدون مسيحياً يجرّدونه من السلاح وحينئذ بدأوا يدخلون البلدة وينهبون المخازن والبيوت. وبعد الظهر اطلق بعض الجنود الاتراك رشقاً، وحالاً سمع صوت اطلاق بنادق الدروز في كل الجهات وهرب المسيحيون برعب الى السراي وسألوا القائممقام عن معنى كل ذلك «الم يعد هو بأن يقاوم كل اعتداء يمكن ان يشنه الدروز عليهم؟ أنهم كانوا يدخلون البلدة بالمئات والالوف» وقد اخبروا جواباً على ذلك بأنه لا موجب للخوف ولكن زيادة في الضمانة فانه من الاحسن أن يحضروا كل ادواتهم الثمينة الى السراي فهناك تبقى كلها غير ملموسة الى ان يستتب النظام. ومنذ ذلك الحين بدأ الرجال والاولاد والنساء يتدفقون الى البناء من كل المواقع يحملون الحقائق والصناديق وبقع الثياب، والكتان والمجوهرات من ذهب ولؤلؤ وماس بكثرة. غنيمة كبيرة، بدأ الاتراك حالاً باقتسامها فيما بينهم.

وبعد ذلك بدأ الذبح، فعندما كان المسيحي يرى كانت تطلق النار عليه أو يذبح. كما وان اللهيب انتشر في الوقت نفسه في عدة اماكن فكان صوت الصياح والولولة والنواح هائلاً خفيفاً. فالكهنة هربوا الى كنائسهم حيث ذبحوا على اقدام المذابح، وكل الذين تبعوهم الى المكان المقدس ذبحوا أيضاً على البلاط، وكان الجنود الاتراك ينادون على الدروز الذين كانوا منهمكين في نهب البيوت بالخروج وذبح الكفرة أنهم يحرسون النهب الى ان ينتهي العمل. وفي صباح ٢٠ منه كان الدروز بقيادة علي بك حماده متجمهرين امام السراي التي كانت تحتوي على اكثر من ١٢٠٠ هارب مع عائلاتهم. فالقائممقام رفض ان يفتح الابواب ولكنه أشار الى حائط منخفض بقربه. وهنا ابتدأ الدروز يتسلقونه في الحال ويتدفقون الى الدار الكبير كالسلاقية في حظيرة الغنم.

أمرت النساء بأن تباعد عن الرجال وتراجع، ولبرهة كانت الزوجات تنضم الى الأزواج والابناء الى الامهات ولكن السيف البارق كان ينفذ التفرقة المميتة وهكذا تجدون الان كل احوال حاصبياً. فقد كان لوقع ضربات الفأس والطبر صوت كصوت قطع الاشجار في غابة ما. وان كل انواع المسبات واللعات والاهانات التي كان يمكن النطق

بها أو اجراؤها كانت تنزل بواسطة الدروز على ضحيتهم المستسلمة. ولو فرض ان احداً حاول اخفاء نفسه فقد كان الاتراك يكتشفونه ويدفعون به اليهم ولو فرض أيضاً ان احد الدروز اظهر شفقة ما فقد كان التركي هناك يعيره بضعفه ويحمسه لاتمام عمله.

دامت هذه الاعمال الجهنمية ست ساعات حتى ان الدم ارتفع اخيراً الى فوق الاعقاب، وجرى الى السواقي وتدفق من المزاريب وانساب في الشوارع، والان اتجه الدروز، وهم واقفون على فريستهم الممزقة الى النساء ويسوفهم في صدورهن طلبوا منهن ان ينادين «يعيش مولانا المنتصر علي حماده» والمخلوقات الضعيفة المرتجفة اللواتي سالت دموعهن على الخدود، اللواتي خنقت العبرات اصواتهن، وكانت شعورهن المنثورة واذايل ثيابهن غاطسة في الدماء صرخن «يعيش مولانا الظافر علي حماده» كل هذا والكولونيل التركي جالساً عند الباب يدخل غليونه الذي كان مسنداً الى جثة ضحية.

ان مشايخ الدروز كانوا قد قرروا هذه المذبحة الفظيعة - لدير القمر منذ ان استسلمت وسعيد بك جنبلاط في خلال الاسابيع الثلاثة التي تلت الحادثة الأولى كان يركب دائماً الى المختارة ويتصل بانصاره والقائمقام التركي في قصر بيت الدين الذي كان يشرف على البلدة. وكان خولية علي حماده عند تركه هذه المؤتمرات يرعب المسيحيين باخبارهم ان ما تقرر كان ان لا يترك ذكر واحد حياً. فقسم من المسيحيين المعتبرين هربوا الى المختارة منذ ابتداء المنازعات ومستسلمين لصدقاتهم القديمة مع سعيد بك وقد استقبلوا بترحاب ولكنهم عندما كانوا يلتمسون وهم ركوع السماح لهم باستقدام اقاربهم كان طلبهم يرفض بكونه غير ممكن. فالآخر كانوا غير مرغوب فيهم وهؤلاء كان يمكن ان يستفاد منهم وبناء على ذلك فانه عندما بدأت المذابح الدموية جيء بهم الى حضرة البك واجبروا على وضع اختامهم وامضاآتهم على عرائض تؤيد أنه كان دائماً يعامل المسيحيين بلطف متناهٍ وانسانية وأنه عمل كل ما يقدر عليه لانقاذهم. وفي اليوم التالي ضربت اعناق ثلاثة من المسيحيين امامه وفي ديوانه.

وفي يوم المذبحة اعتقد سعيد بك انه من السياسة ان يتغيب من المختارة ودير القمر. فانه في الموضعين كان عرضه لان يلتمس منه المسيحيون المذعورون التدخل لوقف الفظائع. فلو انه يرفض التدخل لكان اوجد في ما بعد ذلك برهاناً قاسياً ضده، وهكذا مهد لنفسه حجة ممتازة للانسحاب من هكذا مأزق. فبعد شروق الشمس بقليل ترك

المختارة على رأس فئة تاعسة من المسيحيين النصف عراة مؤلفة من رجال ونساء واولاد مصرحاً بأنه يقصد مرافقتهم بنفسه الى صيدا، «يا للنبيل» يمكن ان يقال: «انه خلص المسيحيين فقد حرسهم بنفسه عملياً» ومع ذلك فانه لم يذهب معهم الى ابعد من جون وهناك تخلى عن مهمة الشفقة فأمر اكبر اهمية كانت تضغط على عقله.

ومسرعاً في عودته الى دير القمر بمثل طيرة النسر، ترجل في الساحة الكبيرة امام السراي بعد الغسق بقليل وقد كانت البلدة كلها ملتهبة. والسنة اللهيب تندفع تارة الى العلاء وطوراً الى الامام أو وراء بلقمتها المحرقة. فالبيوت كانت تنهدم في كل لحظة بصوت مرعب وكانت الصرخات الجهنمية والصيحات القوية تملأ الفضاء وكانت الأرض تبعث بخاراً دمويًا والجثث المقطعة منتشرة هنا وهناك تلالاً تلالاً وبعضها كان لا يزال يختبئ. علي حماده مشى مرافقاً معتمده، ذهاباً واياباً ومدة قصيرة، ثم بعد ان اعطى بعض الملاحظات المجونية اختفى فجأة.

وباكراً بعد الظهر وصل خورشيد باشا من بيروت، ومارا في وسط البلدة تقدم رأساً الى بيت الدين التي ضمن جدرانها كان قد قتل اكثر من مائة مسيحي على ايدي جنود الاتراك والدروز. وقد استمر القتل اربعاً وعشرين ساعة بعد وصوله في اماكن مختلفة دون انقطاع، في الاقضية المظلمة وفي المجاري وفي كل مكان يمكن الاختباء فيه كان السيف الذي لا يرق ولا يلين يتبع ويقتنص الضحايا. وبعضهم كان يخرج فيصلب والبعض احرقوا احياء واخيراً اطلق الباشا مدفعاً وتوقفت مذ ذاك الملحمة. والمشايخ الدروز فرحين مبتهجين ذهبوا الان يقدمون له اعتباراتهم فالاتراك والدروز قد احرزوا انتصاراً مشتركاً.

وفي اليوم التالي اجتمع جماعة تقرب من الفي ارملة وطفل يتيم خارج المكان الذي كان مرة منزلهم السعيد يلطمون أيديهم بيأس غريب، مهزومين من تأثير الجوع مصابين بالحمى من المشاهد الطويلة المؤلمة والخوف والرعب، وفاقدون الشعور تقريباً بالنواح المتواصل لا يكادون يكونون مستترين بالملابس القديمة وهكذا فمصيبتهم كانت كاملة. وبينما هم في هذا، جاء مشايخ آل ابو نكد وامروهم بالانسحاب وتحت مراقبتهم انسحبت القافلة الطويلة المحزنة هابطة الى الوادي واتبعوا الطريق الى شاطئ البحر وفي نفس المساء وصلوا الى شاطئ الدامور بين بيروت وصيدا. فأرسل الآن زعماء الدروز كتاباً الى القنصل

الانكليزي العام يخبرونه عن وصولهم الى تلك البقعة مع النساء اللواتي بقين احياء من دير القمر يطلبون فيه منهم ارسال قوارب لنقلهم بعيداً. استدعاء غريب! فكأنهم كانوا يعتقدون بأن كل الجرائم التي ارتكبوها ستعتبر شيئاً اعتيادياً وان انكثرت ستخلصهم، عطفاً منها، من هذا الارتباك.

وقد امرت بواخر صاحبة الجلالة: كانت وموهاول Mohawle Cannet بأن تحقق حالاً نقل الهاربين التمساء. ولم تكد مراكبهم تبدو للعين حتى حدث اندفاع عام الى جهة الشاطيء وقد رمت بعض النساء انفسهن بين الامواج المزبدة وكانت بعضهن ترفعن اولادهن عالياً الى ما فوق رؤوسهن فعدد منهن كان قد اصيب بجراح من السيوف واكثرهن كن لم يذقن الطعام منذ اربعة ايام وقد وجهن كلهن لعنتهن على الاتراك بدلاً من الدروز، وكن يصرخن «لقد ذبحنا الاتراك» وليس فقط على شاطيء الدامور بل على طول الشاطيء من صور الى صيدا كانت جماعات من الثكالى المتألمات الهاربات من كل نواحي الجبال ترى متعثرات في طريقهن الوعرة. بينما كانت المدينتان مزدحمتان بالمئات المعرضات في الليل والنهار، الى تهكم وازدراء وتعديات المحمدين. ولكن بجهد غير متوقفة من القائدين وست West ولامبرت Lambert وبجارتها النشيطين انقذوا كلهم وحيء بهم الى قرب بيروت التي كانت نفسها في ذلك الوقت تعاني ازمة شديدة.

وفي ٢٢ حزيران ذبح احد المحمدين على مقربة من اسوار المدينة. فتعالت الصيحات حالاً بأن مسيحياً ارتكب هذا الفعل، فاقفلت كل المخازن بالخال وخرجت شرذمة من الاوباش المسلمين الى الاسواق بمظاهرة تنادي للأخذ بالثأر وتصرح بأن الوقت حان فتولى المسيحيين الرعب ولجأوا الى القنصليات الأوروبية وبيوت الأوروبيين للاحتباء، واحيط قصر العدل بمجموع من المسلمين الذين كانوا يتهددون بكبرياء انه اذا لم يعدم القاتل عند مغيب الشمس فانهم سيقومون على المسيحيين ويذبحونهم اثناء الليل. وهكذا كان الخطر محدقاً حتى ان الأوروبيين الذين كانوا يميرون في الاسواق كانوا يهانون فإن القنصل الفرنسي العام أشهر سيف في وجهه واشهر مسدس على رجل انكليزي.

وفي هذا المأزق الحرج رست احدى البوارج التركية في الميناء تحمل جيوشاً بقيادة اسماعيل باشا (الأم العام) الذي نزل في الحال الى البر، ان الهدوء والبرودة اللتين اظهرهما هذا الموظف اللبق طأنت المسيحيين. لقد عرض، اذ اقتضى الامر، أن يضرب المدينة

والكابتن باينتر Paynter من الاكسموت Exmouth عرض بنفس الحزم انزال كل القوة الموجودة. ومع هذا فقد اصر المسلمون بطلب الأخذ بالثأر. فالقي القبض على شاب مسيحي تاعس شوهد على مقربة من مكان الجريمة فسحب وقد مزق على التقريب تمزيقاً. وهكذا فالمحاكمة المضحكة ابتدأت، وتبعها الاتهام والحكم بالموت ولكن الشاب المسكين قال بهدوء أو بطولة: «انا بريء ان الله يعرف أنني بريء ولكن اذا كان موتي ضرورياً لأجل سلامة اخواني فاني اقدم نفسي مسروراً» واخذ الى خارج الابواب وأعدم. هكذا اجريت التضحية التكفيرية وعاد الهدوء.

ولكن التأثير على الرأي العام كان مع ذلك مؤقتاً فالخوف والرعب تملك كل الطبقات ففي كل ساعة كانت الاخبار ترد عن القيام بمكرات من قبل الدروز فإن صوراً كانت مهددة. وصيدا كانت على وشك ان تهاجم. وسارعت مرة ثانية مراكب الانكليز والفرنسيين عند أول اشارة لحماية المراكز المهددة حتى ان ولاية بيروت نفسها اصبحت من يوم الى آخر اكثر خطورة فالدروز مسلحين الى الاذقان كانوا يدخلون المدينة باستمرار ويسرون باهية في الشوارع ويستقبلون بالعناق والتهاني من قبل المحمدين ثم ينصرفون وقد زينت بنادقهم بالزهور والزنايق. اما التجارة فتلاشت تماماً والبنك العثماني شحن كل ماليته والبواخر الانكليزية التجارية المشحونة بضائع أمرت بأخذ كل محمولها الى مالطة، والعائلات المسيحية الرئيسية وحتى التجار من طبقة ادنى كانوا يهاجرون يومياً بالالوف الى الاسكندرية وسيرا واثينا والقوارب كانت راسية على استعداد لنقل السكان الأوروبيين عند اول اشارة ولم يكن هنالك شيء ليقنع المسيحيين سكان بيروت بسوى ان المصير الذي احاق باخوانهم في دير القمر وحاصبيا وراشيا كان ينتظرهم على ايدي الاتراك. وحكامهم وجيوشهم

أن السيرة التي جرى عليها الدروز حركت اقوى التهيجات الفكرية للقضاء على المقاطعات المارونية الصرفة. انهم لم يكونوا بعد اجتازوا نهر الكلب ولكنهم كانوا يبحثون بغزوة الى تلك الجهة كغاية ضرورية لانتصارهم المدهش. اما العلامة الاكثر خطراً من كل هذا فقد كانت ان خورشيد باشا ارسل اوامره لفيلقين تركيين بالاستعداد للمسير الى كسروان «للمحافظة على المارونيين» ومنذ ان اصبح هذا العمل المشؤوم معروفاً شعر القناصل الأوروبيون أنه لم يبق لهم لحظة واحدة لأصاعة الفرصة لقد رأوا

نوع تلك « الحماية » وانه لا حاجة الى القدرة على التنبؤ بجلاء بأن امتدادهم الى المقاطعات المارونية التي تضم عدة آلاف من القرى ونصف مليون من الانفس تقريباً كان معادلاً تماماً لتسليمهم يداً بيد الى غزوة من قبل الدروز والأتراك مشتركين واجتياحهم بعد ذلك بالسيف والنار.

وقد سارع مستر مور Moore قنصل صاحبة الجلالة في اليوم السابع والعشرين من شهر حزيران لجمع زملائه واقترح التجربة في توجيه بيان مشترك رأساً الى زعماء الدروز انفسهم لانهم بمخابرتهم مع خورشيد باشا ينتقلون الى وحلة اعمق فكم من مرة فعلوا ذلك وكانوا مخذولين ومهزوءا بهم فضلاً عن ان خورشيد باشا كان اذ ذاك في صيدا يرأس اعمال التفتيح التي كانت تقترب يومياً، على مرأى منه دون أن يأخذ أية تدابير لكبح جهاج مرتكبها فاذا كان الاتراك لا يشبعون من الدم المسيحي فقد يكون من الامكان اعادة الدروز صدفة الى الصواب وهكذا يلغى الاتفاق بين الطرفين بمهارة. ويمكن ان تتوقف عندئذ المذابح.

وبناء عليه كتب البيان التالي: « اننا نحن القناصل العامون لانكلتره، والنمسا، وفرنسا، وبروسيا، وروسيا. نتأسف اشد الأسف لكوننا مضطرين بأن نصرح أن النهب، والذبح، والتخريب يستمر بشكل يثير اقصى درجات استهجاننا ولذلك فإننا نكلفكم رسمياً بالتوقف السريع عن كل هذه المصائب ويكوننا ممثلي الدول العظمى، وبأسم سفاراتنا اللواتي اعطينا تعليمات رسمية بهذا الشأن فإننا ننبهكم أن مسؤولية ثقيلة ستقع عليكم في المستقبل اذا، وقعت حوادث ما موجهة منكم او من اتباعكم نحو المسيحيين، أو قراهم، أو ممتلكاتهم ولنصل الى هذه الغاية، وهي ضرورة فاننا نطلب منكم بشدة ان تصطلحوا في اقرب مدة ممكنة وأن تستدعوا عصاباتكم التي يمكن أن تكون موجودة في جهة دمشق، أو صيدا، أو زحلة أو دير القمر، أو كسروان أو اية ناحية اخرى. فكروا بالحوادث المؤلمة التي يمكن ان تشمل الجميع اذا لم تدعونا للمطالب التي نوجهها الآن اليكم؟ واعتبروا أن حكوماتنا لا يمكن أن تنظر بعدم اهتمام لاستمرار مثل هذه الحالة ». وقد اعطيت هذا المستندات إلى مستر غراهام Graham رحالة انكليزي سار بها من يومه الى المختاره مقر سعيد بك جنبلاط حيث وصل باكراً في صباح اليوم التالي. والتابع الانكليزي، كما لقب نفسه بجرأة، استقبل زائرته باحترام مغتصب وارتباك

نفسه. مظهر السريعة، اكد له عظم المهمة التي يمضي بها، فركب وتركه بدون لياقة في حالة من الضيق. ولم يعد حتى خيم الظلام، عندما تنازل لتكليف نفسه للقضية المعروضة. وبينما كان يصغي الى كل الطلبات المبينة والمناقشات والمعاتبات التي قدمها ضيفه فإنه كان من حين إلى آخر يخفف عن نفسه بالعبارات الآتية تقريباً « انا ارسل وراء المشايخ ولكنهم لا يأتون على صوتي وأمر الكتابة اليهم لا يجدي فلا سلطان لي عليهم وفي الحقيقة نحن على خلاف مع بعضنا بعضاً. اني بسرور أسير بعض رجالي لمرافقتك اذا كنت ترغب في أن تجول وتزور المشايخ ولكن أحداً منهم لن يتحرك إنشأً واحداً، فغداً عيد « اني لم ادخل ولا بطريقة ما في الحرب لقد عملت كل ما كان بامكاني أن أعمله لأجل المسيحيين وأن محاولاتي الدائمة كانت تهدئة الدروز وضبطهم. ولكنهم لم يصغوا الي ولا قوة لي على اتباعي، أن احط رجل بينهم يعصي أوامري ويهزأ بسلطتي أنا اعرف أن كل انواع التقارير الكاذبة نشرت عن كوني شخصاً ذا نفوذ بين الدروز وأن كل اللوم بما هو حادث القمي بدون عدل على بابي وأما من جهة الطلب لعقد صلح فإن هذا خارج عن السؤال لقد كنت دائماً في محيطي الوضع من اشد المعجبين وفي الحقيقة من اشد الاصدقاء، للانكليز وأني أكون شديد التأسف لأن افكر بأن اعمل عملاً اقضي به على ثقة الحكومة الانكليزية، ومع ذلك فهي تقدر أن تعمل ما تريده انا عبد الملكة المخلص، لتعمل ما تريده ».

وكان « تابع انكليزي » آخر حاضراً عند ابداء هذه الملاحظات الفورية وقد أيد بشدة صدقها وحقيقتها مظهر في الوقت نفسه جهله الخاص وبراءته من كل ما يحدث - وهذا الوجه لم يكن سوى بشير بك ابي نكد الذي اقسم سابقاً أنه سيدك اساس بيته قرب دير القمر بجهاجم المسيحيين والذي كان الآن بلا ريب قادراً على ذلك متى شاء. ومستر غراهام Graham اذ لم يكن شيئاً من الهزء الجاف الذي كان مواجهاً به على هذه الصورة ولا يجاده، بكثير من الدهشة، أن هذين البيكين كانا لا شيء تماماً، قرر أن يجرب حظه مع آخرين من مشايخ الدروز الذين يمكن ان يعترفوا أنهم شيء وقام بجولته في هذا السبيل. ولم يكن أي صائد ثعالب أكثر تحيراً أو اندهاشاً فقد كانت أكثر الثعالب تشتم رائحته فبعضهم كان يختفي في الأرض فلا يسمع به ابداً وبعضهم تجنبوه ولكنهم مسكوا اخيراً ولكن ليقدموا برهاناً عن ذكائهم ودهائهم « فانكليز الشرق » كانوا كلهم من هذا

الطراز . ومستر غراهام Graham، مع كل هذا ، رأى وسمع ما كان كافياً ليقنعه أن امراً كان يهياً وكتب الى القنصل الانكليزي أنه من الواجب أن تأخذ بيروت وصيدا حذرهما . فالمهمة كانت على ما يظهر فاشلة . ومع كل ذلك فالزعماء الدروز مع كل تيقظتهم في احاديثهم وتشبههم في مناصبهم التي كانت تظهر كأنها محقرة فيما لو تظاهروا باذعانهم للأوامر كانوا ادهى من أن يواظبوا على خطتهم عندما تُصادم هكذا بقوة ومنذ تلك اللحظة لم يعودوا يقومون بأي تقدم أو حركة معادية .

لقد كانت تقديرات القنصل الانكليزي العام صحيحة وتدخله جاء في وقته وهكذا استراح لبنان .

والا تراك الذين كانوا الآن قد وصلوا الى غايتهم بمذبة شاملة للمسيحيين في مقاطعات الدروز اعتقدوا أنهم كلما اسرعوا في ايقاف العمل كلما كان ذلك افضل . فأقترح خورشيد باشا بأن يعلن السلام بين الطائفتين شريطة أن ينتسى الماضي فلا نهب يعاد ولا تعويض يدفع ، وقد دُعي الامراء المارونيون والمشايع الى بيروت ليوافقوا ويشتركوا بهذا التدبير ، فالاعتراض والاحتجاج من قبلهم كان بلا جدوى . اذا وافقوا كان السيف يغمد واذا لم يوافقوا كان امامه كثيراً من الشغل الجيد ليقوم به ويجب أن يسمح له القيام به ولكن لغاية ما يتمناه الدروز .

الفصل السابع

٩ تموز سنة ١٨٦٠ المحدثون في دمشق يتدرون ضد
المسيحيين - مذبة رهية وحريق - عبد القادر ينقذ
١٢,٠٠٠ مسيحياً - اجراء احصاء للمذبة - ٣ آب
(اغسطس) مؤتمر الدول الاوروبية في باريس .

الفصل السابع

أن الثوران الدموي لم يكن قد انتهى بعد فقي التاسع من حزيران قام المحمديون في دمشق على السكان المسيحيين في تلك المدينة فغزوا حيّ المسيحيين وابتدأت بصراخهم الشيطاني اعمال النهب والحريق والذبح. ولعدة ايام خلت كان المسيحيون يضربون ويحرقون ويهانون في الشوارع بكل وسيلة ممكنة. وكان اذ ذاك عيد الأضحى على الابواب وكما أن المؤمنين كانوا يضحون الخرفان على جبل عرفات - تضحية دينية، فانهم في دمشق هذه السنة عزموا على أن يقدموا ضحية ائمن - أنهم سيضحون المسيحيين والاخر؛ وقد روّعوا اخيراً لزموا بيوتهم يصرفون النهار والليل في التضرع والصلاة. ولما رأى القناصل الاوروبيون أنه لم تؤخذ التدابير اللازمة من قبل السلطة الحاكمة لايقاف روح التعصب هذه أو لمعاقبة القائمين بهذه الاعمال الارهابية تقدموا جملة مرة بعد الثانية الى احمد باشا الحاكم ليشعروه بالخطر الذي يهدد المسيحيين وليعمل الاجراءات اللازمة لحمايتهم وقد تظاهر في بادئ الامر بجهل كلي ثم اعتذر، بعدم تمكنه لقلة القوى الموجودة لديه وبعد ذلك اظهر الأرتباك والخوف لاشتداد الازمة.

ثم أن تصرفاته المتتالية اثارت اقبح النزعات؛ وهكذا فإن لغته وسيرته كانتا تثبتان صحة ذلك. أنه كان في اجتماعات متتابعة مع بعض الوجهاء في تلك المدينة الذين اشتهروا بتعصبهم. وكان كلما ذهب الى الجامع تركز حرسه على مقربة من الحي المسيحي بدلاً من أن يتركز، كالعادة قرب حيّ المحمديين. وكان أيضاً قد نقل عائلته الى القصر الذي قد حصنه بالمدافع وضاعف عدد الفيلق الذي يحرسه - وأن كل التدابير، كما قال، أخذت لحماية المحمديين الذين كانوا على وشك أن يهاجوا من قبل المسيحيين كما بلغه بصورة اكيدة، من قبل هؤلاء المساكين المسيحيين العزل الذين لم يكن بينهم من يعرف كيف يحمل البندقية والذين كانوا مجردين من السلاح من أي نوع كان. وقد كان من الثابت بعد

كل هذه التصرفات الغريبة، التي كانت تدل في معناها ومغزاها، أن الاتراك كانوا هنا كما كانوا في أي مكان آخر متعطشين الى الدم المسيحي.

وقد أمر، كالعادة المتبعة سابقاً أحد الفيالق التركية بالتقدم الى الحي المسيحي لحماية المسيحيين، وهو نفس الفيلق الذي منذ شهر كان حاضراً مذابح حاصبيا. وهكذا فقد روعت نفوس المسيحيين المساكين أمام هذه المناظر وشعروا أن يومهم حان، ومع هذا مؤملين ولو في معاكسة الأمل نفسه، فقد حاولوا أن يستميلوا قلوب حاتمهم - فأولوا الولائم للضباط وعاملوا الجنود بالحسنى وجمعت مئات الليرات لتوزع فيما بينهم أو لتنفق على اكرامهم ولكن الوقت قد قرب والطبخة أصبحت ناضجة فالمعدات كلها جاهزة والممثلون أصبحوا عديمي الصبر لأفتتاح المسرح فلم يكن ينقص الا الإشارة. وهذه أعطيت أخيراً. فلمدة ايام خلت كانت الصلبان الخشبية تلقى في الاسواق ويبصق عليها ويُمَر من فوقها فرفع المسيحيون عدة شكاوى على هذا الاحتقار لدينهم ولكن دون جدوى وأخيراً في صباح ٩ حزيران القي القبض على ثلاثة فتيان من المسلمين بسبب هذه المخالفة واخذوا الى القضاء وقد حكم عليهم بأن يقيدوا بالسلاسل ويذهب بهم ليكنسوا الحي المسيحي. فقد كان المصير محتماً.

وفيما كان السجناء يمرون، صحبة الشرطة، في الشوارع كان الهياج بين المحمديين يزداد من لحظة إلى لحظة. وعندما اقتربوا من الجامع الكبير اقفلت المخازن المجاورة حالاً. وهرب تاجران الى تلك البناية حيث تقابلا لحظة مع رئيس العلماء وعندما خرجا رفعا اصواتهما بصرخة قوية مربية «دين، دين، دين محمد» وهذه الصرخة المنيئة انتقلت من فم إلى آخر، وهكذا أنتشر الاضطراب المخيف من شارع الى شارع بسرعة البرق فتعطلت كل الاعمال واقفلت جميع المخازن وفي أقل من ربع ساعة كانت جماعة غاضبة تهز البنادق والسيوف والفؤوس وكل ما له صفة السلاح وتتقدم بجاس زائد الى ناحية الحي المسيحي وكانت ترى من كل الجهات جماعات الرجال تتراكم، وكلها مسلحة الى الاذقان، والاولاد والنساء غير المسلحين يصرخون مهددين الكفار ومنادين «اقتلوهم اذبحوهم، انهبوا واحرقوا لا تتركوا واحداً حياً لا بيتاً ولا شيئاً آخر لا تخافوا الجند، لا تخافوا شيئاً، فالجنود لن يمسوننا».

ولم يكد المجموع الهائج يبتديء هجومه حتى اطلق الحرس التركي قذيفة قرب كنيسة

الروم. وهذه القنبلة كانت محشوة بالبارود فقط وموجهة إلى فوق نحو غطاء كان يمتد فوق الشارع فأشتعل الغطاء - علامة إلى ان الحي المسيحي يجب أن يحرق وهكذا ابتدأت اعمال الحريق حالاً وظهرت الآن أسوأ التصرفات. فقد دخلت البيوت ونُهبت فكانت جماعات عديدة تروح وتجيء حاملة المنهوبات من جميع الانواع. وسكان الملحقات اخذت تفد الى المدينة والجنود الاتراك المعسكرون على الأبواب كانوا يفتحونها على المصاريع ويدعون المعتدين الى الدخول. وأما اولئك الذين كانوا يأتون بدون اسلحة فقد كانوا يمنعون من الدخول الى ان يعودوا مسلحين كما وأن مجاري المياه قطعت. وفي المساء كان الحي المسيحي كله لهبة واحدة فألسنة النار كانت ترتفع وتنخفض متموجة تموجاً واسعاً كأنها بحر من نار وكان يرى وسط ذلك جواهر من النساء في حالة جنون بعضهن يحملن اطفالهن على أيديهن يصرخن ويندفعن الى السطوح ثم يقفزن من بيت الى بيت وكثيرات منهن زلت اقدامهن فسقطن وانكسرت ارجلهن أو أيديهن أو قضي عليهن. أما القسم الاكبر فقد هربن الى قلب المدينة واندفعن الى بيوت المحمديين حيث استدروا رحمة الراحين.

وقد كان إلى الآن البرابرة يفتكرون بالنهب فقط ولم تصطدم تدابيرهم بأية عراقيل. أما المسيحيون فقد عرضوا أمرهم منذ البداية الى الجنود الذين طالما وعدوهم بالمساعدة والحماية. لكن الضباط اجابوهم بتوحش أنهم لم يستلموا أوامر للقيام بأي عمل. بينما كانوا زيادة في خوفهم ويأسهم يبصرون الجنود مشتركين في الهجوم وحاملين المنهوبات وزيادة فقد كانوا يوجهون حراهم إلى صدورهم ويسدون في وجههم كل اسباب النجاة. ففي كل ناحية كان يجد الهاربون فولاذاً وناراً. ولم يكن هناك اقرب من خراب تام ودمار محتم بانتظارهم لولا ان الامل وافاهم في وسط المحنة.

فقد كان في تلك المدينة رجل منفي ذا شهرة يصرف ايامه ولياليه بالدرس والمذاكرة الدينية والصلاة. منفي وطني نزيه سليم القلب كانت حياته كلها عملاً متواصلاً من التضحية، نزاع طويل وشريف في سبيل الواجب وكان مثل كل ذوي الاعمال الشريفة العظيمة مواجهها بالبؤس والخسران. فكانت اكايل جهاده نكبات. ومع غلبته على امره، فقد كان يلبس اكايل المنتصر، كما يلبس الشهيد تاجه. لقد تقبل عبد القادر مصيره بفرح وقناعة وبسرور كان يعتبر انه بلغ الغاية. ولكن الغاية الالهية ظفرت لجبينه اكليلاً

آخر أكثر نبلاً - محمداً من الرحمة وبارشاد السماء، نهض هذا النهار ليقوم بعمل ينشر على اسمه الشريف ثوباً من المحامد البتة.

ولم يكد عبد القادر يتأكد من وجود الخطب حتى ارسل المغاربة الامناء الى حي المسيحيين مزودين بأوامر لأنقاذ كل المساكين المصابين الذين يصادفونهم. وقد انقذ مئات منهم بارسالهم الى بيتهم قبل الظلام. وعدد كبير هرع الى القنصلية البريطانية وعندما خيم الليل دخل الحي جماعات من السفاكين اكراد واعراب ودروز واهاجوا الجمع الصاحب الذي كان قد برد حماسه فتجدد صباحه الدامي وبدأت الاعمال المميتة اذ ذاك. واستمرت المذبحة الفظيعة كل تلك الليلة الهائلة واليوم التالي.

وافاضة في الاسهاب، فإن كل الفظاعات كانت دنيئة كريهة هتك اعراض النساء واغتصاب الفتيات - وبعضهن في وسط الشوارع وعلى اصوات الضحك الخشنة والهزء الوحشي - كما وأن بعضهن سبين وحلن بعيداً. وهكذا اختفى مئات منهن يحملهن إلى اماكن بعيدة الى الاماكن المجاورة حيث زوجن بسرعة الى محمدين. والرجال من سائر الأعمال اجبرن على ترك دينهم وختنوا في الحال بجو من الهزء ثم قتلوا. وكذلك فإن الكنائس والاديرة التي امتلأت لدرجة الاختناق في مرحلة الرعب الاولى، كانت تقدم اكداً من الاجساد المختلطة بين جرحى ونصف اموات من الذين لقوا حتفهم نهائياً بين الانقراض الملتهم والاحجار المتداعية عليهم بما يشبه هزة ارضية. وهكذا سدت الطريق العامة بالقتلى.

أما القول أن الاتراك لم يتخذوا أي تدبير لوقف هذه المذبحة الفظيعة وهذه النار فأكثر من الحقيقة لأنهم غصوا بنظرهم عنها وحرصوا عليها وأمروا بها واشتركوا فيها وعبد القادر هو الوحيد الذي حال بين الاحياء والاموات وسرعان ما احضر المغاربة جميع الذين انقذوهم حتى تقدم منهم فطمأنهم وشددهم واطعمهم كما وأنه خرج بنفسه فأحضر جماعة منهم بنفسه وشكل جماعات منفصلة منهم كان يرسلهم مع حرس متيقظ الى القصر. وهناك، عندما ولى النهار المرعب، وجد ١٢٠٠٠ من كل الاعمار والاجناس كانوا مجتمعين ومزجوجين مع بعضهم بعضاً في ملجأ امين غير أنه مزدحم وهذه ثمرة جهوده التي لم تعرف كلاً. وهناك مكتوا اسابيع مضطجعين على الارض العراء بلا غطاء وبقليل من الملابس معرضين الى اشعة الشمس المحرقة. أما مؤونتهم - الضئيلة - فكانت خياراً وخبزاً

ناشفاً. ومع هذا فقد كانوا في راحة غير مضمونة فالجنود الاتراك استمروا في تخويفهم باشاعات عن هجوم قريب يقدمون فيه كلهم للسيف.

واذ ذاك اصبح عبد القادر نفسه مهدداً في بيته كان ممتلئاً بمئات اللاجئين من قناصل اوروبيين وسكان مسيحيين. ولما كان المحمديون محجوزين هكذا عن فريستهم فقد تقدموا نحوه مصرحين بأنهم يريدونهم ولما عرف البطل بهذه الحركة امر، بهدوء أن يسرج حصانه وتقلد درعه وخوذته ثم اعتلى الحصان شاهراً سيفه. فألتف اتباعه حوله وهم بقايا حرسه الاشداء ورفاقه في معارك النصر الهائلة ابطال الانتصار في المولاي (في ١٨ كانون الاول سنة ١٨٤٧ هاجم عبد القادر امبراطور مراكش على رأس جيش مؤلف من ٢٥٠٠ من فرسان ومشاة وانتصر عليهم وعددهم ٦٠٠٠ مقاتل في معركة وقعت على ضفاف نهر المولاي وظهر اذ ذاك المتعصبون فقفز الى وسطهم منفرداً وقال: «ايها الصعاليك ابهذه الطريقة تحفظون شرف النبي؟ لتقع لعنته عليكم! عار عليكم! واي عار! وستعيشون لتندموا. أنكم تعتقدون أنكم تفعلون ما تريدونه بالمسيحيين؟ ولكن يوم العقاب آت يوم يحول الفرنج جوامعكم الى كنائس. لن اسلم بأعطائكم مسيحياً واحداً أنهم اخواني تراجعوا أو امر رجالي فيطلقوا عليكم النار» وهكذا تفرق التجمع ولم يتجاسر واحد من مجموع المسلمين ان يرفع صوته أو يحرك يده ضد بطل الاسلام الشهير.

كان الذعر بين المسيحيين في جميع سوريا فوق الوصف ففي كل بلدة وقرية وفي كل مزرعة كانت هذه الرزية المحتملة منتظرة وكان الجميع يرتجفون بانتظار نصيبهم. فقد كان المحمديون مميزين بشراستهم. فالجميع كانوا يعتقدون تقريباً أن السلطان اصدر امراً باستئصال الكفار. وكلهم كانوا على استعداد لينفذوا مشيئة الله في مثل هذه القضية المبهجة. وفي حلب افتدى المسيحيون عدداً كبيراً من الذبح بدفعهم مبالغ كبيرة من المال الى قادة الرعاع غير أن هؤلاء استمروا في عقد اجتماعاتهم وفي حادثة مفردة اطلقوا النار على افراد الشرطة وكان قيامهم منتظراً في كل لحظة.

وفي اورشليم كان، لحسن الحظ، زعماء المحمديين منقسمين الى احزاب فلم يكن بإمكانهم اخذ التدابير اللازمة للقيام بالتضامن، مع أن الافكار كانت مهيتة لذلك وفي فلسطين كلها قرى مسيحية برجالها ونسائها وصغارها قد اعتنقت الاسلام كبديل لموت محتم - ففي عكا كان الموظف المسؤول قد وزع كميات من الذخيرة على المحمديين، وعين

يوماً محدداً للقيام بذبح المسيحيين، غير أنه في صباح ذلك اليوم نفسه ظهرت فرقتان هولنديتان بالقرب من المدينة وكانت السبب الفعال في عدم تنفيذها، وفي اجزاء سوريا كلها كان العثمانيون يقفون على حد قول الشاعر.

« مثل كلاب الصيد وقد تهيئت للانقضاض على الطريدة »

لمراقبة التضحية الدموية المقررة. كما وانه كان هناك ترقب لمصر بيروت، ولو أن ذلك حصل لكان تعالى الصوت الصارخ « المذبحة » « المذبحة » ليعم البلاد كلها طولا وعرضا ولأصبح العنصر المسيحي كله قرباناً على مذبح التضحية.

ولكنه في نهاية شهر حزيران كان هنالك اسطول من البواخر الحربية والبوارج وما في حراستها جاء من بلدان مختلفة؛ متلاحقة الواحدة بعد الاخرى لتقف على طول الشاطئ ومراقبة ما قد يجري. كانت الاساطيل الانكليزية والفرنسية بأمرة الأميرالين مارلين وموهاتس قد اتخذت مركزاً لها خارج مرفأ بيروت في شهر تموز (يوليو) تلتها البعثة الحربية الفرنسية البرية بقيادة الجنرال بوفور ده أو تبول واخذت تنزل الى البر في السادس عشر من شهر آب (اغسطس) وهكذا ظهرت الاعلام الانكليزية ترفرف على سطح الماء، والبيارق العسكرية الفرنسية تتدفق كالامواج على التراب السوري، آنذاك تنفس المسيحيون الصعداء - وعادت اليهم الثقة بالنفس والامل واخذ الذين كانوا قد هربوا الى شواطئ اخرى بالعودة ادراجهم لقد اصبح المستقبل، اخيراً، مضموناً ومكفولاً.

أما الماضي فأنكشف عن الآتي:

١١,٠٠٠ ذبيحاً مسيحياً.

٦٠٠,٠٠٠ ممن تأثروا بفظائع الحرب الاهلية.

٢٠,٠٠٠ ارملة ویتماً

٣,٠٠٠ منزلاً مهدمة للحضيض.

٤,٠٠٠ مسيحياً مجهولي المصير.

٢,٠٠٠,٠٠٠ ليرة من الممتلكات المتضررة.

هذه الفواجع المتراكمة كانت حصيلة ما ارتكبه الاتراك.

وفي الثالث من آب ١٨٦٠ عقد مؤتمر في باريس من ممثلين عن بريطانيا العظمى، والنمسا، وبروسيا، وروسيا، وتركيا، وصدر عنه بيانات وبروتوكولات موقعة منهم

الاول يحتوي على ست فقرات تتعلق بشروط التدخل المقترح للدول الاوروبية في سوريا. والثاني يحدد بصورة رسمية باللغة الدقة، ان الدول المتعاقدة لا تنوي العمل ولا تسعى الى العمل من خلال ما يناط بها من صلاحيات اجرائية او تنفيذية على الحصول على مكاسب لا على الأرض ولا في تأمين نفوذ اقليمي لها أو تحقيق مصالح تجارية لرعاياها، مما لا يمكن لرعايا أية من الدول الاخرى من دول العالم الحصول عليه ومع ذلك لا يمكنهم الامتناع عن مراعاة ما اتخذته السلطان من قرارات تبين ما للمادة الحادي عشرة من المعاهدة المؤرخة في الثلاثين من شهر اذار ١٨٥٦ من الاهمية حيث يبدو واضحاً ما تعلقه دولهم من اهمية على تنفيذ الوعود المقدسة التي تعهد بها الباب العالي، بأنه يتحتم الأخذ بتدابير ادارية حازمة لتحسين اوضاع الشعب المسيحي بمختلف مذاهبه في الامبراطورية العثمانية.

وبمضور وموافقة والممثلين الخمسة للمسيحيين المجتمعين، من اجل الغاية الملحة وهي ايقاف اسالة الدم المسيحي في سوريا، الذي يجري بتواطوء شرير من قبل موظفي السلطان، هذه الاهانة للعرف العام، وللشعور ومنطق المسيحية في اوربا، تبدو وكأنها متعمدة.

ان الباب العالي بما لديه من سلطة مطلقة يأخذ علماً بما في بيان ممثلي الدول المتعاقدة ويتعهد بتنفيذها في مؤسساته مؤكداً « أن الباب العالي قد استخدم ويستخدم كل ما لديه من وسائل وجهود في تحقيق الرغبة المبينة اعلاه » على هذا، يتوجب على كل بريطاني يحمل رأساً يفكر به وقلباً ينبض بالشعور، تابع ما ورد في الصفحات السابقة، أن يبني تفهمه وإدراكه.

الفصل الثامن

السلام - ١٧ تموز سنة ١٨٦٠ فؤاد باشا - ١٦ آب
وصول فرقة فرنسية مؤلفة من ٧٠٠ جندي - المحاكمة
المهزلة للسجناء الدروز - جرائم الاتراك وشراسة الدروز
تبقيان بلا عقاب - ٥ حزيران سنة ١٨٦١ مغادرة
الجيش الفرنسي.

الفصل الثامن

صرّح نجيب باشا، الذي كان قد عين حاكماً لبشالق دمشق عند ضم سوريا للسلطنة في ١٨٤٠، لأحد عناصر المخابرات السرية التابعة للقنصل البريطاني في تلك المدينة، دون أن يعرف حقيقة الشخصية التي كان يتحدث إليها بقوله: «إن الحكومة التركية لن تتمكن من تركيز سيطرتها على سوريا، إلا بعد قطع دابر المذاهب المسيحية» وقد ظهر أن ما صرح به نجيب باشا، نظرياً، قام خورشيد باشا، بعد فترة دامت عشرين سنة، بتطبيقه عملياً، ولو أن ذلك لم يكن إلى الحد الذي أرادته نجيب باشا وخطط له، ومما لا يدع مجالاً للشك بأن هذه كانت نوايا السلطات التركية في سوريا للوصول إلى أبعد ما يمكن من اجراءات الاستئصال. حتى أن الدروز لكونهم تغاضوا عن قتل العدد القليل من المسيحيين كانوا عرضة للوم المسؤولين.

ومما لا ريب فيه، أنه لو شئنا أن ننظر إلى الأمور من حيث وصلت إليه، من جهة أن الدروز والمسيحيين الذين اشتركوا في هذه المذابح نجوا من العقاب بالمعنى الصحيح، فيما لو قوبل بإساءاتهم وبالوسائل التي خدمت مصالح الباب العالي وسعى ليس للاكتفاء بما يخصه فحسب، بل ليحقق بصورة كاملة وشاملة وبأساليب منحطة يقوم بها عملاؤه، كل غاياته السياسية التي كان يرمي إليها فيما يتعلق بלבnaan كما أنه يبدو وكأنه شيء عادي فيما لو كانت المسيحية قد سحقت بمجذورها وفروعها واستؤصلت بصورة كاملة من سوريا. ولو أن كل مدينة وقرية ومزرعة في طول البلاد وعرضها من انطاكية إلى غزة ومن المتوسط إلى الفرات كانت قد لطخت بالدم المسيحي فالأتراك (بالنسبة للأطماع والمفارقات والأهداف المادية التي للدول الأوروبية) كانوا في مركز البريء ولا تنسب إليهم الأحقاد الشديدة، بينما بقي الوضع القائم للسيادة والاستقلال في الامبراطورية التركية مستمراً باعتبارهم أبرياء وجديرين بالاحترام بعد كل ما جرى من مذابح.

وكما أن المجرم بعد التخلص من ضحيته يحفر حفرة يقذف إليها بالضحية ويهيل عليها التراب ليتناساها، هكذا فعل خورشيد باشا، وبينما كان الدم المسيحي الحار من أجسام الضحايا لا تزال ترتفع أبجرتة إلى السماء، أصدر مذكرات للأمراء المسيحيين وللشيوخ، للحضور أمامه وأجبرهم على التوقيع بالموافقة على بنود مصالحة تركز إلى نسيان كامل للماضي، هذا نصها: «إنه اتفق وتقرر بعد الاتكال على الله أن يحقق السلام بموجب الشروط الآتية الذكر وباعتبار أن كل ما مضى من بداية الحرب إلى تاريخه (تموز ١٨٦٠) غير قابل لأي ادعاء أو شكوى من أي من الطرفين، لا في الحاضر ولا في المستقبل». وهكذا كان المذهب المسيحي سيسحق بذبح الرجال وتعريض الأرامل والأيتام إلى التشرد والموت جوعاً بعد أن تنهب ممتلكاتهم وتحرق، دون أن يقال أي شيء عن كل ذلك.

هذا كان التخطيط التركي ومن المحتمل، أنه لو لم تنشأ ظروف تتعارض مع مثل هذا التدبير، لكان الأتراك تمكنوا من تنفيذه جزئياً أو كلياً وإلى أقصى الحدود، لأن الحكومة البريطانية، في هذا الوقت وافقت، إما لعدم معرفتها أو تظاهراً بالجهل التام، بتحريك المسؤولين الأتراك وبإبداء رغبتهم، بأن يُسمح لهم بأن يمارسوا عملهم ويتدبروا الأمور بأفضل ما يستطيعون في نطاق حكمهم في سوريا.

كانت أخبار هذه الأحداث التي تدمي القلوب قد وصلت وأثارت شعوراً عميقاً في أوروبا، وذلك عندما وقعت المأساة الفظيعة في دمشق وتعالّت الأصوات مستجيبة بالصوت العالي تطلب الشفقة لهول ما يحدث. كثيرون اعتقدوا لسذاجتهم إذ ذاك أن أجراس الحزن في الامبراطورية العثمانية قد بدأت تدق. وبعض من الأتراك ذوي المكانة في القسطنطينية (بينهم أولئك الذين لم يكونوا على اطلاع على أسرار الأعمال الجهنمية) صرحوا لدى سماعهم بالخطر المحدق «لقد ضعنا» ولكن للأسف فإن هؤلاء الذين تحرقهم نيران شكوكهم وتخاوفهم كان عليهم أن يعرفوا مدى مرونة الدبلوماسية المسيحية.

إن مبدأ التصلب في كبت العواطف لدى الوزارة البريطانية تأثر أخيراً وصدر قبول ولو متأخر وبتردد للاقتراح الذي قدمه امبراطور فرنسا، بإرسال قوة إلى سوريا للمساعدة على تأمين الهدوء، وضمان سلامة المسيحيين، والإشراف على أعمال المحاكمة والاقتصاص، بقي أن نعرف على الأخص طبيعة ومدى هذا الاقتصاص الذي نودي به

بصوت عادل وقوي في أوروبا وأن نعرف الأساليب التي استعملت بالتعويض على المسيحيين، ولو إلى حد ما، عن خسائرهم.

المبعوث الآتي عين وأرسل إلى سوريا من قبل الباب العالي بهدف تحقيق هذه الغايات المرجوة. كان المرسل كمبعوث فوق العادة من قبل الباب العالي هو فؤاد باشا الذي وصل إلى بيروت في ١٧ تموز ١٨٦٠.

وهكذا وصلت أيضاً فرقة فرنسية مؤلفة من ٧٠٠٠ رجل بقيادة الجنرال بوفور دوتبول إلى بيروت في ١٦ آب ١٨٦٠ أو حول هذا التاريخ. ووصلت بعثة أوروبية دولية مؤلفة من ممثلين عن خمس دول أخرى عقدت اجتماعها الأول في بيروت في ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٦٠.

للإيضاح يحسن بنا أن نتبع عمل هؤلاء المسؤولين بالترتيب. فبعد وصول فؤاد باشا بعدة أيام أرسل خورشيد باشا السفاح إلى اللاذقية بغية إبعاده من قبل المذكور. وذلك لدى عودته من حيث كان مقبلاً لمزاولة أعماله أو مهماته في بيروت، كان ذلك بناء لاعتراض شديد اللهجة من الأميرال مارتن، لمنع مثل هذا الاجراء المعيب، وفي هذا ما يشير إلى قوة شخصية، وفكرية، وحزم، وشدة مما كان يتمتع به روحياً قادتنا البحريون، وهي وثيقة لا بد لي وأن أذكرها إظهاراً للتنوع التي بعثنا بها لمواجهة السلطات التركية سواء بالأمور الصغيرة أو الكبيرة.

فما ورد في اعتراض الأميرال: «إن إساءة كبرى قد وقعت على العالم المتمدن من جراء الأعمال البربرية التي ارتكبت ضد المسيحيين في سوريا.

إن السلطات التركية المحلية كانت أطراف مباشرة في هذه الأعمال الممجية لسماعها للجنود بمساعدة السكان المسلمين والدروز، وبالإشتراك معهم، بعد التغلب على المسيحيين، بقتل الرجال وارتكاب الجرائم الفاحشة مع النساء والأولاد الإناث. إن العالم المسيحي لا يستطيع ولا يجوز له أن يترك مثل هذه الجرائم أو الفظائع غير معاقبة، وليكن محققاً ومؤكداً أنه لن يرضيه اتخاذ تدابير قاصرة عن أن تجعل تكرار مثل هذه الفظائع أمراً مستحيلاً».

«إن الحكومة التركية لن يكون لها الحق أن تطالب بإعادة الاعتبار إليها إذا لم تقم بتحقيق العدالة لأنه إذ ذاك يحتمل أن تخرج الأمور من يديها، حتى ولو كانت ستبدي

شيئاً ضئيلاً من التهاون.

وإذا كانوا يرغبون في تحاشي أي تدخل خارجي ليس من السهل تحديد عواقبه، فعليهم أن يكونوا صادقين بإعلانهم أنهم ككل دولة أخرى من العالم المتمدن يستنكرون الأعمال غير المشرفة التي ارتكبت في سوريا.

«وتصريحاتهم بهذا المعنى يجب أن يرافقها تصرف عادل نحو المتضررين ومعاقبة لا شك فيها للمسؤولين الأشرار».

«إن مجرد معاقبة الموظفين الصغار سيعتبر مخالفة كبيرة لا تعود بأية ضمانة في تأمين المستقبل».

«فالكبار الذين أساءوا إلى سلطتهم بالاشتراك أو بغض النظر عن المآسي الفظيعة التي تكومت على السكان المسيحيين في سوريا يجب أن يتحملوا نصيبهم من العقوبة».

«لقد بلغني أن سعادة خورشيد باشا سيعود إلى ممارسة مهامه في هذا البشالق. واني أجد نفسي مضطراً إلى اعلان رجائي بأن لا تكون هناك نية في السماح له للعودة إلى سلطة أساء استعمالها بل ينظر إلى الفظائع المخيفة التي يُعتقد أنه كان طرفاً فيها وإلى أهمية المسؤوليات التي أشترك أنا بها في ما يتعلق بسلامة السكان المسيحيين هنا، فإن من واجبي الاعتراض على السماح له بتولي سلطة يتوقف عليها سلامة العديدين ممن كان قد قابل ما جرى لهم باستخفاف وازدراء».

التوقيع

مارتن

صدر من على مارلبورو في بيروت في ٢٥ تموز ١٨٦٠.

بعد استلام فؤاد باشا لهذه الوثيقة بساعات قليلة جرى اعتقال خورشيد باشا وأودع السجن وهكذا كان مصير وكيله (الكيخيا) وإثنين من تابعيه. وهنا لا يصعب علينا تقدير الأثر البالغ الذي تركته هذه الوثيقة القوية اللهجة على ما جرى من تحقيقات في دمشق، تلك المدينة التي دخلها فؤاد باشا في ٢٩ تموز ١٨٦٠.

ليس هنالك من يقول ومع أنه لا حاجة لذكر التفاصيل التي اتخذها فؤاد باشا لتحقيق معاقبة المجرمين فرمما كان في إيضاح هذه النتائج ما هو مفيد وذو معنى.

إن أحمد باشا حاكم دمشق وقائدها العسكري اتهم بشهادة أحد المسلمين المسمى صالح

ذكي بك (الذي تقدم بجرأة واتهمه بسوء استعمال وظيفته إلى حد بعيد وبأنه بسبب تقاعسه وجبنه حصلت المذبحة)، فقتل رمياً بالرصاص، وكذلك فإن ثلاثة من الضباط الأتراك الذين كانوا حاضرين في مذبحة حاصبيا مع مئة وسبعة عشر من الأفراد (باش بزيق، وشرطة، ومتجولون) لاقوا نفس المصير وأربع مائة تقريباً من رتب أقل، حكم عليهم بالسجن والنفي، وبلغ عدد الذين أعدموا شنقاً من المدنيين ستة وخسين، أما عدد النبلاء الذين تم نفيهم إلى قبرص ورودس فبلغ أحد عشر صودرت في الوقت نفسه أملاكهم، ولكنها حفظت لصالح عائلاتهم. هؤلاء النبلاء يعيشون في أماكن نفيهم متمتعين بالرفاهية وكل مباهج الحياة، أحدهم أقام حفلة زواجه. وبلغ ما فرض على المدينة كعقوبة مالية ٢٠٠ ألف ليرة وهو مبلغ كان يستطيع ثلاثة أو أربعة من التجار المحمدين تسديده بمنتهى السهولة.

هذه العقوبات هي كل ما حصلت عليه أوروبا المسيحية كمقابل لإحراق ونهب وتهديم الحي المسيحي في دمشق الذي بلغت خسائره لا أقل من مليوني ليرة استرلينية (غير التصرفات اللاإنسانية والوحشية والذبح دوغما مبرر لستة آلاف مسيحي عاجزين عن المقاومة ولا يمتلكون أي سلاح، واغتصاب نسائهم وبناتهم وتهجير عشرين ألف لا حول لهم ولا طول نتيجة تعصب المسلمين وغضبهم لأنهم كانوا على حد قول القنصل البريطاني من أتباع المسيح).

وفؤاد باشا لدى عودته إلى بيروت في ١٢ أيلول سبتمبر استدعى بعض شيوخ الدروز المرموقين ونبلأهم للحضور أمامه. تحت طائلة حرمانهم من ألقابهم وامتيازاتهم ومصادرة أملاكهم في حالة التمتع. وقد لبى الدعوة أربعة عشر منهم، وامتنع ثلاثة وثلاثون فوُقت عليهم العقوبة بصورة غير محددة ودوغما أية محاكمة، وأمام محكمة خاصة جرت محاكمة خورشيد باشا، وطاهر باشا، وبعض من ضباط الأتراك وسبعة من شيوخ الدروز لكونهم كانوا متهمين، أمام محكمة كانت قد التأمّت لهذه الغاية. فالأتراك حكم عليهم بالسجن المؤبد وعلى الدروز حكم بالموت. ومثل هذه العقوبة كان قد حكم بها على عبد السلام بك، الكولونيل التركي سابقاً لكونه كان مترئساً للمذبحة التي جرت في دير القمر، وأربعة من الدروز جرموا لأنهم قاموا بقتل المسيحيين بأيديهم. غير أن العقوبة التي حكم بها على الدروز أنزلت فيما بعد إلى عقوبة بالسجن المؤبد.

« ولكن لم ينفذ في الواقع، أي من الأحكام المشار إليها لا بالموت ولا بالسجن المؤبد ».

وفؤاد باشا وجه اهتمامه الآن لمعاقبة عامة الدروز، وعليه فقد جمع القساوسة المسيحيين وطلب منهم مساعدته على تحقيق إجراءات هي في منتهى الضرورة، وقد أخبرهم أن الجرائم التي ارتكبتها الدروز ضد المسيحيين أصبحت معروفة للعالم كله. وأن الدم الذي سكب آنذاك يستوجب عقاباً دموياً، وأنهم يستطيعون الاعتماد عليه في تحقيق ذلك بمنتهى القسوة. وقد أجاب القساوسة بأنهم لا يستطيعون بصفتهم الدينية أن يتدخلوا في مثل هذه الإجراءات. لأنهم قد يعرضون على غير قصد منهم، أبرياء للموت. بيد أنهم يستطيعون أن يسموا لهم ممثلين من المسيحيين للتعاون معه فيما يقرره، وعلى هذا فقد تم تعيين ستة عشر ممثلاً. وبعد أن حدد لهم فؤاد باشا مهامهم الملحة - التي كانت الغاية الرئيسية منها إصراره بحزم على الثأر لما نال المسيحيين الضحايا، وأنهى بأن طلب إليهم تزويده بكشوفات بهؤلاء الدروز الذين عرف عنهم استعمال أقصى حدود الممجية، وقد تعهد أن كل ما يجري بينه وبينهم يجب أن يبقى سراً دفيناً، وأوجب عليهم أن يقسموا على التوراة بحضور قساوستهم بأنهم سيقومون بتنفيذ المهمة الموكولة إليهم بإخلاص وضمير حي وسرية.

وبعد انقضاء مهلة شهر أو تزيد - قام أثناءها الممثلون بجمع المعلومات والتحقيقات الآيلة لذلك، في كافة النواحي والأماكن ولدى كل المسيحيين، رجالاً ونساءً ممن كان في استطاعتهم تزويدهم بالمعلومات التي يطلبونها - رفعوا لفؤاد باشا كشفاً يتضمن أسماء ٤٦٠٠ درزياً و ٣٦٠ محدياً من السنة والشيعية، باعتبار أنهم جميعاً، على حد قولهم، شاركوا في المذابح. وكان الزمان والمكان وطبيعة الجريمة توضع أمام كل اسم على حدة. وعلى الأثر تسربت شائعات وانتشرت على نطاق واسع، أن الممثلين المسيحيين يطالبون بـ ٤٦٠٠ رأساً من الدروز - وهو ما كان يريده الأتراك، إن لم يكن ما دبروه، لأنه يسرهم أن يضعوا المسيحيين أمام العالم الأوروي في موقف ينزل عليهم السخط بدلاً من أن يجعلهم في موضع من يستحق الشفقة، وليس ما هو أكثر قبحاً وأشد تحايلاً، وحقارة ولؤماً، بل وأكثر احكاماً لضربة سياسية محكمة من هذه التي حصلت.. إذ لا ريب، أنه منذ هذا الوقت وكنتيجة استطرادية لاعلان مثل الافتراءات التي وجهت

إلى القساوسة والممثلين على السواء، انتشرت أخبار هذه الافتراءات في كل القارة الأوروبية، وعلى الخصوص في بريطانيا، حيث تحول الرأي العام لدى السياسيين والحكام والصحافيين وأصحاب الرأي إلى كره للمسيحيين السيئي الطالع، وإلى ذمهم، بينما أعلنوا تعاطفهم واستعدادهم للعمل على تقديم كل عون للدروز القتلة.

وقد احتج القساوسة بقوة على التهم التي وجهت إليهم. والممثلون صرحوا أنهم لم يقدموا كشفاً بمن يتوجب اعدامهم، ولكن لمجرد إعطاء أسماء الدروز الذين تصرفوا بمنتهى البربرية، وأنهم فعلوا ذلك بضمير حي، مقتنعين بأن ذلك هو غاية ما هو مطلوب منهم، وأنه لن يكون لهم دور آخر، وأن المسؤولين الأتراك سيتصرفون بهذه الكشوفات بالطريقة التي يرون أنها الأنسب، لتحقيق العدالة. والكشوفات كانت مقسومة إلى فئات ثلاث:

الأولى: المحرضون، أكانوا ممن اشترك في المذابح أو لا.

الثانية: رؤساء العصابات الذين كانوا يرأسون القتلة، والنهايون، وحارقوا البيوت.

الثالثة: الأشخاص الذين يرفضهم الرأي العام لكونهم اقترفوا الجرائم الفظيعة، والذين أقدموا على ارتكاب جرائمهم في ظروف تضاعف من شناعة اعتداءاتهم.

وهكذا استدعى فؤاد باشا الممثلين وطلب إليهم إعادة النظر بالكشوفات وهذا كان ما قاموا به. وفي الكشوفات المصححة بلغ عدد اصحاب الفئة الأولى ١٢٠٠ رجلاً من أشد الدروز اجراماً. وكان الاعتقاد السائد عند المسيحيين أن الأجراء المنتظر هو أن يجري اعدام هؤلاء ال ١٢٠٠ جماعات جماعات، وفي المواقع التي حصلت فيها المذابح. وأن يرسل عدد من الآخرين البالغ عددهم ٣٤٠٠ درزياً إلى السجون والمنفى والخدمة في الجندية التركية. هذا كان التوقع لما يجب أن ينزل من عقوبات على أولئك المتوحشين الذين ارتكبوا هذه الفضائح الشنيعة.

وبعد استلام الجدوال المصححة بقليل، جرت اعتقالات في وقت واحد بأماكن مختلفة طالت ١٥٠٠ درزياً من مختلف القرى. واعتقد المسيحيون على اثر ذلك أن العقوبات التي طال انتظارها ستنفذ. ولكن كم كانت دهشتهم عظيمة عندما وجدوا بعد أيام ثلاثة أن أكثر المساجين الدروز اطلق سراحهم، وهم من الذين وردت اسماؤهم في الجدوال كأكثر المتهمين بربرية. لقد اطلق سراحهم دون اجراء أية تحقيقات معهم، وهكذا لم يبق

بين أيدي السلطة سوى ٨٠٠. وهذه الظواهر الراهنة هزت ثقتهم باخلاص الحكومة، وهو شعور كانت الحالات التالية تزيده التهاباً.

ففي ٨ كانون أول ديسمبر - قدم فؤاد باشا الى المختارة، وهي مركز رئيس في المقاطعة الدرزية، واقام محكمة خاصة لمحاكمة السجناء الدروز، وفي الوقت نفسه اصدر أوامره للممثلين المسيحيين بلحاقة، ولكن نظراً لأستياهم من مظاهر التلاعب التي بدت واضحة، ولتطلعهم الى عدم جدوى الإجراءات التي ستتخذ لمعاقبة الدروز المسيحيين، وهذا ما تعودوا الحصول عليه من فؤاد باشا، ثم بمقتضى ما جرى في تحقيق العدالة. فإن الممثلين اجمع رأيهم على الامتناع عن الحضور، غير أنه اتخذت تدابير اقنعت ثمانية منهم بتلبية الدعوة.

ولدى عقد اجتماع خاص بين فؤاد باشا وبينهم وجه إليهم رغبته في أن يعطوه المعلومات التي تساعد على معاقبة السجناء الدروز كلاً بنسبة جرميته. وقد اجابوا على ذلك بأن كل ما لديهم من معلومات قد ورد ذكرها في الكشوفات المقدمة. وأنهم لايعتبرون انفسهم في موقف المحامي عن المجموع المسيحي الكبير. لأن هؤلاء وبالأخص الارامل النكالي البائسات رفضن توكيل أي من الممثلين بكشف حالاتهم البائسة. وإنهم لذلك واستطرادا بأستطاعتهم أن يطرحوا الاسئلة التي توصلهم الى تحقيق العدالة. أو الى طلب تقديم الادلة الثبوتية في الحالات التي تستوجب ذلك، عند عدم حضور اصحاب الشكاوي.

وقد اجاب فؤاد باشا، إنه لم يقصد أن يلوم احداً، أو يشكك ولو لحظة واحدة في صحة ما جاء في الكشوفات - وأنه لا يريد أن يعتبرهم محامين عن المسيحيين - بل هو يعتبرهم رجالاً لهم احترامهم في مناطقهم، وعلى هذا يرجوهم أن يعطوه أية معلومات لديهم مما يثبت ادانة الدروز المعتقلين في السجون ولكن الممثلين اصرروا على ما قدموه كما اضافوا أنهم يجب أن يعلنوا ما اكتشفوه من أن الوعد بالسرية الذي فرض عليهم قد نقض، بل أن الكشوفات التي قدموها نشرت في الجبل وزيادة على ذلك فإن عدداً من الدروز الذين وردت اسماءهم واعتقلوا قد اخلي سبيلهم. وأن هذه الأمور وضعتهم في موضع المستاء.

وكان جواب فؤاد باشا، أن ذلك كان صحيحاً، وأن هذه الشخصيات اعتقلت

واخلي سبيلها، ولكن المسؤولية تقع على اولئك المسؤولين الذين انيط بهم امر القاء القبض على المظلومين. وأن اوامره ستصدر بالتحقيق الدقيق الحازم في ذلك - ثم احالهم على المحكمة حيث جرى عند تقديم انفسهم اليها ما جرى معهم عند فؤاد باشا من ضرورة اعطاء الاثباتات ضد الدروز المعتقلين في السجون وبالاسلوب نفسه صرحوا بعدم قدرتهم على تحقيق ذلك وعاد فؤاد باشا الى استدعائهم إليه ثانية، واخبرهم أنه لا لزوم لأن يكونوا غاضبين، فهو يعتبرهم قضاة محلفين، وهذا ما هو موجود في جميع الدول المتحضرة، وأنهم بمشاركته في هذه الأمور يتوصلون الى تحقيق العدالة وأنه لا هو ولا هم يحسن بهم أن يتسرعوا أو يتحيزوا وهنا طلب إليهم أن يختاروا من الجداول ٣٠٠ درزياً من ذوي السمعة السيئة من حيث توحشهم وبربريتهم وأن يكون في انزال العقوبة بهم ما يرهب الآخرين ويخيفهم.

وقد اجاب المثلون أنه يوجد بين المسيحيين من بلغت خسائرهم حداً بعيداً ومؤلاً، والذين هي مطالبهم بتعويض هذه الخسائر ملحة (فبعضهم فقدوا عدداً كبيراً من الأهل يزيد على خمسة أو خمسة عشر ضحية) وأنه سيكون من المستحيل عليهم اختيار مثل هذا العدد بما ينطبق على الحقيقة ويراعى فيه الصدق، إلا اذا سمح لهم بالعودة الى بيروت ثانية ليقوموا بأبحاث جديدة. وأجابهم فؤاد باشا بأنه يمكنهم أن يرسلوا بطلب المسيحيين الذين يودون التحقيق معهم، وقد اجاب المثلون على ذلك بقولهم «ولكنهم كثر وأن احضارهم سيكون صعباً وغير مريح. وهنا رد عليهم فؤاد باشا بقوله «اني لاحظ أن اجوبتكم يقصد بها التمويه، وهذا يدل على أنكم لا تريدون أن تقبلوا ما اطلبه منكم أما بخصوص السماح لكم بالذهاب للحصول على معلومات تتعلق بالدروز الذين عرف عنهم الأجرام فهذا لا استطيع الموافقة عليه، لأنه يستغرق وقتاً طويلاً وأنا انما اقممت محكمة هنا بقصد اجراء محاكمة سريعة ومختصرة واذا كان لديكم شكوى من أي نوع ذات قيمة ثبوتية فسيبرني الاستماع إليها - أما اذا لم يكن لديكم شيء من ذلك ولكنكم تصرون على الرفض فيمكنكم الانصراف - ولكن احذر كم أنه بعد انصرافكم من هنا لن تقبل أية شكوى ضد درزي لا من رجل ولا من امرأة ولا من ولد من المسيحيين».

وهكذا انصرف المثلون. وفي اليوم التالي تم الافراج عن ٥٠٠ مسجوناً درزياً اضافة إلى ثلاثين متوالياً من اكثر القتلة اجراماً. واعطي لكل منهم وثيقة تمنحه البراءة من

كل ما قد ينسب اليه من اتهامات، وبعد وقت قليل استدعي ٢٤٠ درزياً إلى طرابلس الغرب لمدة طويلة أو قصيرة من النفي، مع تعليمات بأن يعاملوا معاملة حسنة وهكذا - اخذت العقوبات العظمى التي كان المفروض أن تنزل على الدروز تتناقص ثم تلاشى وعلى حد قول الشاعر:

« كانت كنسج الاوهام تمضي دون أن تترك وراءها أثراً »

ومن الصعب أن نقدر كيف كان يمكن لممثلي المسيحيين أن يتصرفوا خلاف ما قاموا به. فلو أنهم نزلوا عند ما طلب منهم في المختارة لكانوا وضعوا انفسهم في موقف الخطأ وتحملوا مسؤولية لم يكونوا تحت أية اعتبارات قادرين على تحملها، كأن يكونوا قد قبلوا بالتسويات والتنازلات، أن لم نقل قاموا بالتضحية الكاملة بمصالح وحقوق المجموع المسيحي بكامله.

هذه الحقوق البينة التي هي فوق كل تساؤل. اكان بشأن عقوبة دموية تنزل على رؤوس اولئك الذين اباحوا الدم المسيحي اذ كان هناك عشرات من الدروز المجرمين الذين ظهرت اسماؤهم في الكشوفات من الذين جرى اعتقالهم أو لم يعتقلوا كما كان هنالك عشرات من الذين اعتقلوا تم اخلي سبيلهم.

أم بشأن العدد الذي تقلص الى ٣٠٠ درزي مجرم، الذين كانت اجراءات العدالة ستطاهم فهو في الدرجة الأولى ليس بالعدد الذي كان في حسابهم أن يحاكموه ويعاقبوه ازاء ما وقع من جرائم، والذي كان فؤاد باشا قد دعاهم للقبول به - كما وانهم من ناحية ثانية كانوا يعرفون جيداً ويقدرّون نوعية العدالة التي يمكن ان تحققها لهم محكمة المختارة (حتى ولو أن الممثلين وضعوا كشافاً بهؤلاء الثلاثمائة؛ التي ستخضع الى تحقيقات دقيقة وصارمة) وهذه مسطرة من وقائع المحاكمة التي جرت أمام المحكمة، (فإن امرأة مسيحية قدمت شاهدين اثنين للشهادة ضد درزي قتل زوجها عندما فتحت معه التحقيقات المثيرة الآتية التي تجعل من مثل هذه المحاكمة مهزلة. « السؤال - ما هي الالة التي استعملها السجين لقتل زوجته؟ هل هي السيف أم البندقية؟ وهل كانت بندقية مزدوجة أم مفردة؟ واين استقرت الرصاصة؟ في الصدر أم في الخاصرة؟ وهل نفذت الرصاصة من الجسد أم استقرت فيه؟ وهل سقط على ظهره أم على وجهه؟ »).

واذا كان هذا هو نوع الأسئلة بشأن هذه الحالة، وكان المطلوب الحصول على اجوبة

مقنعة، فهل يمكن اثبات جرم ما على أي درزي؟ غير أن المرأة استدارت اخيراً بأشمئزاز لمواجهة القاضي بعنفوان فوجهت اليه وهي تبدي الامتعاض قولها: « لقد نسيت يا سيدي أن تطرح سؤالاً آخر هاماً، وهو هل أن زوجي ذهب إلى الجنة أم إلى النار » ففي الواقع ان الممثلين المسيحيين شعروا أنهم موضوع سخريه وأنه ليست هنالك رغبة لأعطاء المسيحيين المساكين البائسين أية عدالة لشكاويهم، وعلى هذا قرروا أن يغسلوا ايديهم من مثل هذه الاجراءات المعيبة، ووضع قضية المسيحية المظلومة بين يدي رب يصغي الى نواح الناكالات المرملة والبائسين؛ اليس هو الذي يقول: « أنا العقاب وكل سيجزى بعمله ».

وفي السادس عشر من شهر آب اغسطس، سنة ١٨٦٠ نزلت الى البر الجيوش الفرنسية وهي تنشد الأناشيد الحربية ضد الدروز متوقعين أن يشاركوا في حماية المسيحيين التعساء والثأر لهم. وبعد توقفهم مدة شهر تقريباً في حرش الصنوبر في بيروت سمح لهم بالتحرك - كانت المهمة الرئيسية القاء القبض على الدروز كخطوة أولى لانزال العقوبة المحقة بهم - وقد اشار تقرير إلى أن الجيوش التركية كانت قد احكمت الطوق عسكرياً على السفوح بين لبنان وحوارن لتمنع انسحابهم بذلك الاتجاه، وأنه تقرر أن تتقدم الجيوش الفرنسية من الغرب في لبنان أو من الشاطيء اذ كان كل ما هو مطلوب حصر الدروز ضمن دائرة لا يمكنهم الخروج منها على حد تقدير الخبراء - وفي ٢٤ ايلول سبتمبر صعد فؤاد باشا من صيدا باتجاه الجبل الدرزي. وتقدم الجنرال دوتبول الفرنسي على رأس جيوشه التي قسمها الى فرقتين كل منها ٢٠٠٠ جندياً بنفس الوقت من بيروت وعلى خط مواز للجيش الذي يقوده فؤاد باشا.

ومشى في خطوات الفرنسيين مئات من المسيحيين الذين قاموا ببعض التجاوزات. أنهم وجدوا انفسهم في حالة قصوى من الغيظ الذي لا يعرف حدوداً لما ارتكبه الدروز من فظاعات وسفك دماء دون مرر فذبحوا على ما يقال مائة من الدروز بين شيوخ ونساء واطفال، وهذه الأعمال ارتكبت خارج نطاق الفريق الفرنسي ولم تثر أي اهتمام ساعة وقوعها، ومع أن الجنرال دوتبول لم تكن لديه أية سلطة تنفيذية في لبنان فإنه، مع ذلك، كان عندما تقدم له شكوى ضد أي مسيحي أنهم ولو بسرقة يأخذ الأمر بحزم وشدة. وكثيرون من المسيحيين الذين قدم الدروز شكواي بحقوقهم تعرضوا لعقوبة الجلد حتى على

مخالفة سرقة ضئيلة. فالأخلاقية الفرتسية في الجيش كانت مثالية لحفظ النظام ولكنها لم تكن في محلها بالنسبة للتعامل مع المسيحيين.

وبعد أيام قليلة من التقدم عبر الجبال وصل الفرنسيون والأتراك إلى سهل البقاع وكان تلاقيهم في قرية جب جنين على قدم سلسلة لبنان الغربية: وهناك بدا لهم أنه كانت هناك فتحة لم يحسب لها الجيش التركي حساباً في الطوق المضروب لمنع تراجع الدروز فاستطاع عدد من الشيوخ الدروز و ٢٠٠٠ من أتباعهم العبور منها بسلا إلى حوران وقد حاول فؤاد باشا تهدئة خاطر الجنرال دوتبول على هذا الخطأ غير المقصود، معلقاً بمنتهى التهذيب والعبارات المنتقاة، أن اجراءات ملائمة قد اتخذت للقبض على المخالفين، وانتهى كلامه بأن طلب إليه العودة نزولاً إلى لبنان، والجنرال دوتبول أمام هذه الخديعة بدا مرتبكاً ومنزعجاً لهذه النهاية غير المجدية في حركته التضامنية، وقد أبدى ملاحظاته على كل ذلك بعبارات قاسية. ولكنه لما كان يعمل تحت قيادة فؤاد باشا وبناء لأوامره فلم يكن لديه إلا قبول دعوة زميله ثم وداعه والعودة من حيث أتى.

منذ ذلك التاريخ عسكر الفرنسيون في قرى المسيحيين في الجبال ولكن بدون لقاء سيوفهم كلياً فقاموا بالعمل في البناء والنجارة، والزراعة، لمساعدة المسيحيين على بناء اكواهم ثانية. بينما كان القسم الأكبر منهم يصرف الوقت لاهياً يدخن الغليون - وهكذا كان عليهم جميعاً أن يكونوا عديمي الانتاج متفرجين على ما خلفته فضائح الدروز التي بقيت دون ان ينالها عقاب أو يثار لها وقد صرف الجنرال دوتبول الاشهر السبعة الباقية في بيروت يقطع وقته الممل بالانتقال في نزهة الى الجبال احياناً ولكن ليس دون أن يتعرض رجاله لأهانات يوجهها اليهم المحمديون دون أن يلاقوا قصاصاً أو عقاباً.

واخيراً جاء اليوم الذي لم يكن من مجيئه بد، فشمس الخامس من حزيران سنة ١٨٦١ اشرفت على العلم المثلث الألوان زاهية ساطعة ولكن لتلقي اشعتها البراقة على ما ناله من اذلال، أن الزواف الشجعان عادوا إلى سفنهم متسترين بظلام الليل خلسة، بينما كان الشعور بالاشفاق يتأجج في كل الصدور على هذا التراجع المثير للشفقة لحرس متقدم لدى امة عظيمة. كان هؤلاء طليعة المتقهقرين.

ففي اليوم الثامن منه تراجعت فرقتان باتجاه الشاطئ في وضح النهار على انغام موسيقى الجيش لتغطية ذلك الشعور بالخيبة الذي نادراً ما شعر به الجنود الفرنسيون في ممارساتهم

الحربية كان الجو حاراً ورطباً والضباط كما الجنود حاولوا دون جدوى أن يسيروا مرفوعي الرؤوس. مظهرين ارتياحهم، وحتى بيارقهم كانت لا تخفق بل تبدو منكسة مهانة.

هذه كانت نهاية الاحتلال الفرنسي. غير أنه مما لا ينكر، أن الحملة الفرنسية الى سوريا تركت وراءها سمعة حسنة؟ أنها خلقت شعوراً عاماً بين المسيحيين بأمان بينما اضعفت في المحمدين روح التعصب، فإن مجرد ظهور الجنود الفرنسيين في المقاطعات اللبنانية اثار الخوف عند الدروز وجعلهم يهربون الى جميع الجهات. فالشيوخ وجدوا مخايء لهم في الاحراش والكهوف، بينما سعت نساؤهم إلى ايجاد مأوى وحماية عند المسيحيين. وهي حالة استمرت مدة شهرين أو تزيد، وقد تبين للدروز مع ذلك أن الفرنسيين لم يأتوا لأبادتهم، بل بالعكس عاملوهم بطول أناة بل زيادة على ذلك أوجدوا لديهم شعوراً بالثقة بحسن نواياهم مما جعلهم يرجعون من مخابثتهم الى منازلهم مطمئنين.

أما القول أن الفرنسيين لم يكن لمجيئهم من فائدة، على الأخص فيما يتعلق بالقضاء القبض على المسيحيين من الدروز، فهو قول مردود إلى ما كان من شعور بالحسد أكان من الأتراك أو من البريطانيين لاختيارهم لهذه المهمة. إذ لم يكن قد مرّ على وجودهم في سورية أكثر من شهرين عندما صدر بيان من جلالة ملكة بريطانيا تعلن فيه أن هنالك معارضة شديدة لأحتلال طالت مدته وأنه من الأفضل وضع مهمة حفظ السلام في البلاد بيد المسؤولين الأتراك، مشيرة بما يثير الدهشة، إلى أنه لا يمكن تأمين الامن والسلامة العامة، ما دامت المنازعات بين الدروز والمسيحيين قائمة، وأنه ما دام هنالك وجود لهذين الشعين فلن يكون بالأماكن التوصل إلى سلام دائم - والحكومة التركية أمام هذا لم تتباطأ في محاولة ابطال مفعول العنصر المتدخل، أكان برفض مكشوف للمقترحات، المقدمة من الجنرال الفرنسي بايجاد تعاون فعال وتعاضد، أو باللجوء إلى التحايل والتقايس مما جعل التعاون امراً مستحيلاً.

ومما يؤسف له اشد الاسف أن يظهر مثل هذا الشعور ليحول دون تحقيق العناية من مجيء هذه البعثة التي كان مقدراً لها أن تقدم خدمة كبيرة لقضية انسانية عادلة. ولو ان الحكومة البريطانية كانت قد تغلبت على ما تمسكت به من سوء ظن عند المسيحيين لم يكن مبنياً على اساس صحيح لكانت مضت في العمل على تحقيق العقاب، الذي كان في اقصى

درجة من الاهمية لأولئك الذين انتهكوا كرامة المسيحية بقسوتهم وفظاعتهم، باعطائهم
التأييد القوي والمساعدة الحازمة للتدخل الفرنسي - ولو أن ذلك حصل لكان المسؤولون
الأتراك في سوريا انتهجوا دون ريب نهجاً مختلفاً عن الذي اتخذوه ولكن باستطاعتهم
التدخل إلى نتائج افضل من تلك التي حققوها، ولو أن مثل هذا الشعور كان موجوداً لما
طلب من الجنرال دوتبول بعد قيامه بتلك النزهة غير المشمرة في جبال الدروز في شهر
ايلول سبتمبر ١٨٦٠ أن ينزل من الجبال « جبال لبنان » ولكن حصل اصرار على القيام
بمحنة التفاف حاسمة حققت الهجوم على الدروز وحصارهم ثم اخضاعهم لمحاكمات
ميدانية في عقر دارهم، لأن أولئك المحرضين والمشاركين في المذابح « البرابرة » من
الدروز ومن بينهم زعماء ذوو نفوذ يزيد عددهم على ٢٠٠٠ رجل استطاعوا أن ينسحبوا
إلى حوران، على مسافة اربعة ايام فقط من لبنان.

ولو أن فؤاد باشا جعل اقامته في مدينة دمشق ومن هناك جهز حملة تتقدم الى حوران
لكانت نتائجها بالنسبة للحسابات الحربية مؤكده ومضمونه لقد كانت الظروف مؤاتيه
فقبائل البدو، التي هي على عدااء دائم مع الدروز في تلك المنطقة كانت مهية للقيام بأية
مساعدة ضدهم خصوصاً في تلك الفرصة السانحة اذ كانوا يمنحون هبات ورشاو سخية.
بالاضافة إلى أن الجيش التركي والفرنسي كان كل منها مؤلفاً من ٥٠٠٠ عنصر بكامل
سلاحهم وخيولهم وسلاحهم وعلى رأسهم ضباط ذوو خبرة مثل الجنرالين دوتبول وكنتي،
يتقدمان متعاونين الى حوران، واذا اقتضى الأمر الى قلب اللجاء، المعقل الحصين عند
الدروز، مما يجعل العصاة الدروز والقتلة لا يجدون بديلاً عن الموت سوى الاستسلام
ولكان تحقق انزال القصاص على الاثمن الاشرار بما يحقق العدالة باقصى معانيها ويحفظ
الكرامة الاوروبية ومقامها السامي، وتكون اذ ذاك اكبر هدية يمكن تقديمها للباب العالي
ولبريطانيا بجعل مدة الاحتلال الفرنسي قصيرة الامل بدلاً من أن تطول.

★ بعد كتابة هذا الفصل جرى تسليم بعض المعتقلين إلى القسطنطينية ولكن دون أن يكون
بإمكان أي إنسان أن يتصور انزال أية عقوبات بهم.

الفصل التاسع

٥ تشرين اول اكتوبر ١٨٦٠ إلى ٥ اذار مارس
١٨٦١ اجتماعات للمبعوثين الاوروبيين دون نتائج مشرة
- اللورد دوفرين وجهوده النبيلة - ذبح ٥٠٠٠ شخصاً
بقي بلا عقاب - انتصار الخداع التركي - التماس العدالة
من مسيحي اوروبا.

الفصل التاسع

اتفقت الوزارتان البريطانية والفرنسية، على اقتراح هذه الاخيرة، بالطلب من الحكومة التركية إرسال بعثة من قبل الباب العالي ومن الدول الكبرى، الى لبنان بهدف اجراء تحقيق فيما جرى من اعمال عنف في تلك المنطقة، كان من مهمة هذه البعثة ان تقوم بتحديد مسؤولية الاشخاص الذين كانت لهم علاقة بالحوادث، وان تبحث بما يمكن فرضه من عقوبات، وتخصيصه من تعويضات، ثم في النهاية رفع تقرير بذلك الى السلطان، تبين فيه افضل ما يمكن أن يتخذ من تدابير تكون كفيلة بالحيلولة دون حصول مآسي اخرى شبيهة بها في المستقبل.

والباب العالي كان قد وافق على مبدأ التدخل الاوروي بالشؤون اللبنانية ومع أنه، كما هو طبيعي ومعقول، كان يفضل التفرد بالعمل بالشؤون القضائية في المنطقة التي وقعت فيها الاضطرابات، فهو مع ذلك، بعد أن صدر القرار لم يبق له الا القبول، ممناً نفسه بالأمل في أن يتمكن من ممارسة مداوراته، مما يتيح له تحويل البعثة عن غاياتها. ولو ظهر أن اجراءات البعثة كانت غير مرضية للباب العالي فسيكون بإمكانه شل حركتها باستخدام اساليب مغايرة، تؤدي الى الايقاع بينها، وبذلك يتمكن من جعلها كبش فداء نظراً لقصر نظرها، وتحت هذه التأثيرات عقدت البعثة الدولية الاوروبية الى سورية اجتماعها الاول في بيروت في الخامس من تشرين اول، اكتوبر، سنة ١٨٦٠. ومن المضحك، اذا جاز القول، الأخذ بذلك المبدأ المشهور «عدم التدخل» إن من قال به أو اقنع الحكومة لبريطانية باعتناقه، يجب أن يعتبر مسؤولاً من الفئة الأولى، من المآسي التي وقعت في سورية في الفترة الاخيرة.

اذ لو ان الحكومة البريطانية، كانت قد تدخلت، في السنوات الثلاث السابقة، في الشؤون اللبنانية، كما كان يجب عليها أن تفعل، وهو ما كانت مرتبطة به من حيث

المبدأ، والواجب والشعور بالكرامة، فكانت استطاعت ان تعمل ما لا تستطيعه آية دولة اوروبية اخرى لأن هذا ما اخذته على عاتقها في سنة ١٨٤٠ (ايام ابراهيم باشا) وهو أن تضمن للبنان سلامته، وكرامته، ولو أنها أخذت بعين الاعتبار الافادة من المعلومات القيمة التي كانت تقدم لها باستمرار خلال تلك الحقبة بواسطة مسؤوليها القنصلين، ولو اولت الانذارات التي كانوا يقدمونها لها على التوالي بدقة، ولو أنها كانت تلح بتركيز واصرار شديدين، على الباب العالي، بأبعاد اولئك الموظفين الاتراك الذين كانت اعمالهم السابقة قد اوضحت بأنها تقود، دوغما ريب، الى اسقاط لبنان في مهاوي الفوضى والاضطرابات، لكانت تفادت كل الذي حصل، بيد أنها بدلاً من ذلك قامت بمساندة عهد جديد من القوة والاستقلال للامبراطورية العثمانية، بفرض مبدأ «عدم التدخل» مما جعلها تفرق في دوامة التساهل، وعدم الاهتمام، بايجاد وضع لائق لمنطقة هامة، فلا تستفيق الا على الشعور بغيب ما جرت به احوال الحرب، ومآسي المذابح.

امتدت اعمال البعثة مدة خمسة اشهر، وكان آخر اجتماعاتها في الخامس من آذار، مارس، سنة ١٨٦١، (كان اعضاء هذه البعثة يمثلون ست دول وعددهم سبعة هم: فؤاد باشا عن تركيا - اللورد دوفران وكلانبوي عن انكلتره - والمسيو ريشارد عن فرنسا - وبوفيكوف عن روسيا ووكيكر عن النمسا وروفس عن بروسيا) في هذا الوقت اهتمت هذه البعثة، بحدود ما تسمح به صلاحيتها، بالشؤون العامة، مما يؤدي إلى اعادة التنظيم، محاولة اعادة المسيحيين المهجرين الى مناطقهم، وبناء منازلهم المدمرة، وتحديد مبالغ التعويضات عليهم، وإلى مراقبة الاجراءات القمعية ضد المسؤولين من الاتراك، والدروز، الذين نسبت اليهم الأعمال الاجرامية؛ واخيراً وضع تصميم لحكومة لبنانية يمكنها أن تقدم لرعاياها السلام، والنظام، والأمن وهي امور كانوا يطالبون بها منذ عشرين سنة باستمرار.

وأنه لمن غير المفيد، أن نحاول وصف البؤس المميت والمعاناة القاسية، اني في وقت ما، تراكمت على الارامل المفجوعات، والأيتام البائسين الذين تدفقوا هاربين من هول المجازر، الى بيروت وصيدا، بينما كان الدروز يقهقهون ضاحكين على بؤسهم، شامتين بما حل بهم من مصائب، قائلين لهم بقسوة، أنهم أنما تركوهم احياء، لتتقطع قلوبهم وتدمى؛ الاتراك فبعد أن حققوا غاياتهم انسحبوا بدهاء من مسرح البؤس، حيث كان شبح

الموت يحيم على اولئك البؤساء المطرودين، الذين كانوا، لو لم تمتد لغوئهم يد رحيمة، هلكوا بالآلاف من الموت جوعاً. لتبق هذه الحقائق المؤلمة، ماثلة أمامنا، كلما مرّ في مخيلتنا ذكر اولئك المحرضين على انزال مثل هذا البؤس في المسيحية بقسوة لا يمكن ان تُنسب، أن المعونات الخيرية، لحسن الحظ تدفقت من أوروبا، عندما وصلت الاخبار الاولى عن المأساة المضجعة، خصوصاً من فرنسا، ومن انكلتره، وكذلك من امريكا، وتدفقت كالجداول لتروي البائسين، وتغطي مشاهد التدمير والخراب. على الأثر تشكلت هيئة امريكية وانكليزية، لتتولى مهمات الانفاق والتوزيع، وادارة كافة الاعتمادات الآيلة الى تخفيف المآسي. وقد استطاعت بعملها الدائب وقدرتها الادارية قطع دابر البؤس، اذ كان لديها كشوفات باسماء البائسين والمفجوعين من مختلف القرى، والمناطق، وكانت المساعدات التي تعطى هي بمعدل شلن لكل فرد، مع كميات من الطحين والملابس، توزع على الافراد، وفي الوقت نفسه أنشئت مستشفيات، واتخذت كل التدابير الممكنة لرفع شبح البؤس. وكذلك فالمسؤولون من الاتراك ساهموا من جهتهم بتقديم مساعدات ولكن. كم كانت مساعداتهم هذه ضئيلة بالنسبة للمتطلبات الراهنة!! اذ يمكن الحكم على ضآلتها، بواقع أنه في شهر تشرين الثاني، نوفمبر، تضاءلت اعتماداتهم لدرجة كبيرة، وكادت أن تكون التخصيصات اليومية التي كانوا يقدمونها، قد انقطعت أو توقفت، لو لم يبادر اللورد دوفران، بتصرفه النبيل، ويمنحهم سلفة من جيبه الخاص بمبلغ ٥٠٠٠ ليرة، ينقذ بها اولئك الذين كانوا يعتمدون على تلك المساعدات التركية للنجاة من الموت جوعاً، وقد وجهت البعثة اهتمامها في الدرجة الاولى الى مسألة التعويض على المسيحيين الذين اذا اضفت خسائرهم في دمشق الى خسائرهم في لبنان والبلاد المحيطة به، لقدّرت بمبلغ ثلاث ملايين ليرة استرلينية، على وجه التقريب. في كانون أول ديسمبر سنة ١٨٦٠ انتقلت الهيئة الى مدينة دمشق لتكون لها رأياً بمدى ما حصل من تخريب، ولدى عودتها الى بيروت، شغلت نفسها بحساب المبالغ المطلوب جبايتها من غير المسيحيين، من اولئك الذين تورطوا بأعمال النهب والقتل، ولأخذ افضل التدابير لوضع هذه الخطة موضع العمل - فقدّرت خسائر المسيحيين في دمشق وحدها، كتقدير أولي، بمليون وربع المليون ليرة، ولكن هذا التقدير أو التخمين أنقص إلى ٧٠٠ ألف ليرة، ذلك كحد أدنى، (المجوهرات بأثمانها الباهظة لم تدخل بالتخمين) وقد تقرر

أن يجمع المبلغ من المحمدين في ذلك البشالق - وكانت البعثة قد اقترحت فرض ضريبة على الدرور غير أنه لم يؤخذ بهذا الاقتراح وصرف النظر عنه.

ومع هذا، فبعد كل المحاولات التي كان من الممكن اتخاذها لجمع المبلغ المطلوب، تبين وجود عجز كبير، كان مطلوباً تأمينه؛ قد كان بإمكان المجتمعين، دونما ريب، أن يجدوا طريقهم إلى نتيجة ملموسة، أو على كل حال يتوصلوا أخيراً إلى أخذ تدابير، من شأنها أن تكون قد وفرت للمسيحيين البؤساء فرصة الحصول على ما هو من حقهم من تعويضات معقولة، غير أنه لدهشتهم، أن فؤاد باشا بلغهم عند نهاية الجلسة الخامسة عشرة أن كل ما يتعلق بالتعويضات قد رفع إلى القسطنطينية، مصرحاً بأن حكومته تحتفظ لنفسها بحق التقرير في كيفية تعيين مبالغ التعويضات ودفعها، وكذلك في وضع ما يتوجب من قوانين يتم بموجبها تأمين المال. وهكذا فإن هذه المسألة الهامة التي كان يتوقف عليها مستقبل بقاء الآلاف من المسيحيين أحياء، أخذت بسهولة من أيدي أولئك الرجال الذين كان مجرد وجودهم سيجعل منهم خير حكم في ما يمكن أن تحققه مثل هذه التدابير، هؤلاء الذين كان يجب أن يبقى أمر التصرف بالتعويضات من شأنهم، والذين كان من المفترض أن تكون قراراتهم بشأن كل تعويض، نهائية، وغير قابلة للاعتراض، أجل هؤلاء المبعوثين وحدهم كان يجب أن تكون لديهم كل السلطات في توزيع التعويضات، لأن المسؤولين الأتراك، وهم المسببون لهذه المآسي، لن يعيروا أي اهتمام لما قد يصيب البائسين. وأنهم إذا تركت لتقديراتهم فإنهم سيحاولون تخفيض قيمة المساعدة إلى أدنى مبلغ ممكن، ولما كان قد تحقق أمر تحويل المساعدات برمتها إلى الباب العالي، حيث سيجري بحكم العادة النظر إليها بعين التحيز، بعيداً عن تفهم الحقائق، ويفصل بها، إذا كانت هنالك رغبة في الوصول إلى نتيجة، على أساس جعلها تعويضات سخية لا شحيحة، لا تفي بالمطلوب.

وانه لأمر معجب، أن المبعوثين لم يرفضوا الخضوع بغباء لمثل هذا التعطيل المعيب لصلاحياتهم التي لا شبهة فيها، ولم يطالبوا، برغبة وتصميم وحزم، بالرجوع إلى حكوماتهم، بقصد الحصول على تعليمات جديدة، حول مثل هذا الأمر، والواقع أنه كان هنالك سبيل واحد، وهو وضع تقرير يبين الحد الأعلى من التعويضات المطلوبة، والتي هي من حق المسيحيين الحصول عليها - ثم أن يبين بصورة قاطعة أن الوسيلة الممكنة للحصول على

هذه التعويضات هي واحدة لا اثنتين، أن تقدم الدول العظمى كامل المبلغ كسلفة إلى الحكومة التركية، ثم تجربها في الوقت نفسه على فرض ضرائب إضافية على السوريين لتكون الفرصة متاحة لتسديد هذه السلفة دونما تأخير.

ولكن، بدلاً من اتخاذ هذه الخطوة النهائية الحازمة، فإن المبعوث الفرنسي، معبراً عن شعور زملائه، أظهر استغرابه وأسفه العميقين لهذا القرار، الذي من المؤكد أنه سيسبب تأخيراً في التنفيذ، تنفيذ التدابير التي اتخذها جميع أعضاء البعثة متفقين بشأنها، ومعتبرينها «أمراً بالغ الأهمية» أما النتيجة فكانت ما يمكن حتى لمراهق صغير أن يتنبأ به - إذ بعد انقضاء شهرين، أبلغ المبعوث التركي البعثة، أن الباب العالي، نظراً لضالة موارده لا يستطيع أن يدفع للمسيحيين في دمشق أكثر من ثلاثمائة وخمسين ألف ليرة، وأنه حتى هذا المبلغ، لا يمكن دفعه إلا على أقساط ستة، وفي مهلة أقلها ثلاث سنوات - أنه من المشكوك فيه أن يكون بالإمكان رتق هذا الفتق، إذ أن فرص التحايل بتوزيع المبالغ التي تجمع على شكل رشاو للمسيحيين متاحة وأنهم بذلك يورطونهم بهذه السرقة الجائرة، ويتواطأون معاً على انتهاك روح العدالة والمساواة. فرؤساء الأكليروس وبعض من الوجهاء الذين هم تحت نفوذ مباشر للدولة، تسلموا تعويضاتهم كاملة، ووضعوا اختامهم وتوقيعهم في المقابل على عرائض تثبت أن العدالة أخذت مجراها على اكمل وجه وبعد انتظار سنة تقريباً، أعطي التجار والحرفيون الذين يكسبون قوتهم اليومي فقط بعرق جبينهم ومن اليد إلى الفم. وكذلك أعطيت الأرامل البائسات، وأعطيت الأيتام الذين ليست لهم أية موارد يعتمدون عليها، سندات بالمطلوب لهم، بموجب القانون الذي وضعه الباب العالي، كانت الدفعة الواحدة لا تساوي أكثر من ربع أو عشر المطلوب لكل منهم، ولم تكن مثل هذه السندات لتعطي لأحدهم إلا إذا وقع على وصول يذكر فيه، أنه استوفى كامل المطلوبات له. وعندما بدىء بالعمل بهذه التدابير الجائرة، ولم يجدوا أمامهم من يلجأون إليهم لأغاثتهم، كانت الأرامل البائسات تملأن الهواء بصراخهن المحزن، لأنهن لمسن بوضوح، أن هذه المساعدات الجائرة، التي كانت ستعطي لهن على دفعات متتالية، سيتم انفاقها أيضاً بصورة تدريجية لتأمين حاجياتهن اليومية، وأن ذلك سيتركهن وحيدات، لا أصدقاء لهن ولا مكاناً يلجأن إليه، سيتركن هكذا ليواجهن الواقع المرير، والموت المحتم. فتدفقت على الأثر جموع كبيرة على القنصليات الأوروبية،

تطلب المساعدة وتطالب بالتدخل لأنقاذهم من الضربة المميتة، ولكن دون جدوى، إذ لم يكن هناك إلا وعوداً كاذبة بالمساعدة، كان ما أصاب المسيحيين في لبنان مثل الذين أصابهم في دمشق، فيما يتعلق بالتعويض عليهم، كانوا ضحايا لا حول لهم ولا طول، عانوا من النهب والظلم والاهمال، التي سببها لهم الباب العالي، دونما اهتمام، ووافقت عليها أوروبا بعدم مبالاة وقسوة، أما الارامل البائسات من حاصبيا وراشيا على سفوح السلسلة الشرقية لجبال لبنان، فقد كنّ يأملن أن ثمن الزيتون المباع لحسابهن، سيأتيهن بدخل ولو ضئيل، يمكن أن يساعدهن على مقاومة العوز لبضعة شهور، لكون المسؤولين الاتراك كانوا قد تعهدوا لهن بالمحافظة على المحصول من أن يستولي عليه الدروز. وأن يقوموا بجمعه في الوقت المناسب ولكن خاب ظنهن، فبدلاً من استلام ٨٠٠ قنطاراً وهو المحصول الحقيقي فقد قيل لهنّ أنه ليس هناك سوى ٣٥٠ قنطاراً - وحتى هذه الكمية لم يستلمنها؟ وفوق هذا كله، أمرن بالعودة الى بيوتهن. دون أن تؤخذ أية ترتيبات لتأمين منازل أو اغطية أو اعطائهن ما يساعد على بقائهن على قيد الحياة؛ (المنازل التي أمرن بالعودة اليها كانت لا تزال اكواماً من الانقاض يغطيها الدخان الاسود وتظهر هنا وهناك فيها عظام الازواج القتلى والأخوة والأشقاء والأبناء وكلها متروكة في وهج الشمس المحرقة).

هذا كان العطف التركي، وكل هذه المآسي وما كان يتخذ من اجراءات معقدة، كانت تحصل مع وجود جيش فرنسي على الساحة اللبنانية، ووجود سفن حربية لبريطانيا وفرنسا قبالة الشاطئ في عرض البحر، ومعها كل التعليمات اللازمة، التي وجهت الى البعثة للقيام بالتحقيق بما كان من احوال رافقت هذه الحرب الأهلية، لتحديد مسؤولية الأشخاص الذين كانت لهم علاقة بمحصولها، مما يلزم المبعوثين بضرورة تتبعها واتخاذ الاجراءات القضائية بشأنها سيان ضد الموظفين الاتراك، أو زعماء الدروز وعامتهم، واكثر من ذلك، فقد كان هنالك اصرار على أن يكون هنالك من يمثلهم في المحاكمات، وأن لا يكون هنالك حكم أو تنفيذ لحكم إلا بمعرفتهم وموافقتهم - بيد أن المبعوث التركي اعتبر أن مثل هذه المطالب غير مقبولة، وابدى رأيه في أن البعثة، يجب أن تقتصر اعمالها على الانصراف الى اجراء التحقيقات العامة فقط، لأن اي تدخل في التحقيقات والاجراءات القضائية، يمكن أن يكون له تأثير مباشر على استقلالية المحكمة المعنية

بمحكمة المتهمين، غير أن الحزم الذي ابداه المبعوث الانكليزي دون تردد، تغلب على محاولة السلطات التركية اعطاء انفسهم حق مراقبة، يمكنها دون شك، تعطيل أية خطط يمكن أن يقروها لجعل نتائج العدالة كافية لتحقيق انتصاراً سياسياً، في محاكمة زعماء الدروز ومعاقتهم، وهي اجراءات كانت قد بدأت تظهر فعلاً مثل هذا الميل.

ومما قاله اللورد دوفرين: أنه اذا كان من حق البعثة المشاركة الكاملة في كل التحقيقات، ولم يعط لها مثل هذا الحق فوراً، فسيقدم بنفسه، وبصورة رسمية ويقف في باب القاعة المعدة للمحاكمة، حتى يمكن وضع مسؤولية رفض السماح له بالدخول على عاتق المسؤولين من الاتراك كلياً، وقد عاضده في ذلك زملاؤه بالاجماع في وجهة نظره هذه، بالنسبة لما لهم من حقوق. وما أن ابلغ فؤاد باشا، الذي كان في دمشق بهذا التصرف حتى بادى الى تحميل البريد، من تلك المدينة، رسالة مستعجلة وفيها ما يفيد أنه قبل بذلك. وفي اجتماع البعثة الخامس، في الثالث والعشرين من تشرين أول، اكتوبر، سنة ١٨٦٠ وضعت اللائحة الآتية كأساس لتصرفاتهم المستقبلية: -

« أن البعثة تعمل مجتمعة أكان في التحقيق بأسباب وبواعث الأحداث الأخيرة، أم كان فيما يتعلق بمخالفات وتورط الزعماء في الخروج على السلطة، أو يتواطؤ اولئك العملاء في السلطات التركية ».

ومع أن حق التدخل الذي توصل إليه المبعوثون بنجاح، كان قد وضع بنية حسنة، وحال في بعض الحالات دون ارتكاب اخطاء، فإنه مع ذلك كان عاملاً ظاهراً في تأخير سير العدالة، ومساهم على الأخص، في تلك التعقيدات الغريبة التي تعرضت لها المحاكمات السورية بكافة انواعها، وما انتهت إليه فيما يتعلق بلبنان، وما كان من خفاياها واسرارها.

أن الفظاغات التي ارتكبها الدروز كانت معروفة، وكان مسببها أيضاً معروفاً، كما كانت الاثباتات التي تدينهم وافية، وبمتناول اليد، ولم يكن أمام العدالة إلا أن تضرب بسيفها، أو تنصب ميزانها - لتصل الى عقوبة مرضية وعادلة، ومع هذا فإن الأسابيع والشهور انقضت، وبدت البعثة العثمانية متغاضية عن المهمة التي كان يطلب منها تحقيقها، وهكذا اصبحت البعثة الأوروبية في النهاية فاقدة الصبر، متبرمة خجولة من العمل السليبي، وشاعرة بعظم المسؤولية التي تقع على عاتقها فيما لمست من مناورات وتحايل ومحابة

هي فوق كل حساب، حتى لا نقول تأخيراً مقصوداً، لذا انبرت لأظهار رغبتها الشديدة بأخذ اجراءات سريعة وحاسمة وهنا لجأ فؤاد باشا، لأعطاء المبعوثين تأكيدات مكرراً برغبته في الاستمرار باجراءات المعاقبة دون ابطاء، غداً، وكانت كلمة « غداً » هذه تخرج من بين شفثيه قوية مما جعلهم يتوهمون، لقلة خبرتهم، بأنه عمل مؤكد، ووعد صادق، وكان هذا ما دفعهم الى تدارس ذلك في ساعات فراغهم، غير عارفين بأسرار نهج التحايل والمداورة في الدبلوماسية التركية.

وقد كان مبعوث جلالة الملكة، أول من ادرك هذا التحايل، أن لم نقل الخداع، بهذه الملاحظات الوهمية، فوجه استجواباً ذكياً الى فؤاد باشا، قاصداً به افهامه أن للصبر حدوداً، وأن مطالب أوروبا لا يمكن تأجيلها أكثر من ذلك، فقال سعادته بتصميم واحراج: - « أن خمسة آلاف من أبناء لبنان، وضمن حدوده، قد قتلوا بحد السيف، ومائتي قرية قد احرقت، ولم ينزل العقاب بأحد من هؤلاء الذين ارتكبوا هذه الجرائم، ومع أن ذلك حدث وجيوش السلطان تحتل دون اعتراض كافة الجبل، وقد انقضت الشهور على وصول سعادتك، معطياً الوعد بأن يكون يوم العقاب وشيكاً » ثم اضاف، « أن السياسة والعدالة كلاهما تطلبان اتخاذ ما يضمن معاقبة المتهمين بمنتهى الوضوح، وفي هذه الحالة يجب اعطاء المثل على ذلك بأجراء فعلي وفوري، يقنع القبائل اللبنانية بأنه لا يمكن لحكومة السلطان أو الدول الأوروبية أن تسمح بتكرار مثل هذه المآسي والفواجع ».

كان عند اللورد دوفران اعتقاد أن تأخر فؤاد باشا في معاقبة الدروز يجب أن ينظر إليه بذلك الشعور في أن الظروف القهرية توجب استعمال القسوة مع شعب يوحى اليه ضميره، أن ما يقتضيه من فضائح كان يرضي موظفي الباب العالي، وبهذا كان اللورد يضرب على الوتر الحساس، لأنه لو اعتبر أن الدروز، كانوا مجرد ادوات تنفيذ، وهذا لا مجال للشك فيه، فليس هنالك من هو ادرى بذلك من وزير خارجية السلطان، الذي لحسابه كانوا يعملون..

والبعثة، بعد أيام قليلة، وفي جلستها العاشرة تجاوبت مع ما ابداه المبعوث الانكليزي، فأقرت باتفاق كلي، أن معاقبة الدروز يجب أن تكون حازمة، وسريعة - لأن التدابير الروتينية ستكون في غير موضعها، وأنه من الضروري الضرب بسرعة وبقسوة،

دون اللجوء الى الاجراءات القضائية العادية، وأنه لا بد من اعطاء مثال قاطع وسريع على ذلك - والمبعوث العثماني سعيماً منه في تسخين هذه المناسبة، متأثراً بما لمسه من حماس في تحقيق العدالة، طلب بالحاح متسائلاً عما اذا كان يقتضي جمع المتهمين الدروز بعد القاء القبض عليهم في بيروت قبل التنفيذ بهم، أو أنه سيكون هناك محكمة نقالة تستطيع لدى انتقالها من مكان الى آخر، وحتى الى الموقع الذي جرت فيه المجزرة، قطع الرؤوس، وهي في طريقها، هنا طلب المبعوث الانكليزي، بأسم الإنسانية، أن لا يتلقى المجرم عند سوقه للتنفيذ إلا ضربة واحدة شرط أن تكون مميتة، اذ لا يجوز أن يتعرض الإنسان للذاب...!!

كان واضحاً، في الظاهر أن المبعوثين الاوروبيين قد حققوا الغاية التي جاؤوا من أجلها، وأنه في الأيام القليلة العادية سوف تتدحرج رؤوس من الدروز. والاتراك، بالرغم من تعاطفهم الديني، وما يخاطبهم من ريب في عدالة هذه التصرفات، فسيكونون مضطرين لأن يثأروا للدم المسيحي المسفوح في لبنان واذ ذاك تشعر المسيحية المهانة بأنها نالت حقها - ولكن زميلهم التركي كان يمسك بالخيط، ودائماً بالمرصاد، فمع اختتام الاجتماع اقترح على البعثة، أنه لما كانت محاكمة مشايخ الدروز في بيروت لا تزال جارية، فإنه سيكون من الانسب انتظار نتائجها قبل التعاطي مع عامة الدروز في الجبل (وكأنما كان بين الأمرين اي ترابط) فاستجيب الطلب، وقبل الاقتراح بالتأخير، والمراوغة كانت بارعة، أنه ربح الوقت، والوقت عند التركي هو كل النقاط المطلوبة لتحقيق الانتصار في أية لعبة !.

والآن وقد عرضت بوضوح أمام عيون المبعوثين والمواطنين المسيحيين براعة المداورات الخادعة، التي سبق بحثها في فصل سابق، من استدعاء القساوسة، وتعيين الوجهاء، وفرض سرية التصرفات، والقسم على ذلك، ثم كتابة الكشوفات، والنظر فيها، واعادتها للمراجعة، واعتقال الدروز والوعود المقطوعة، والتوقعات الكبيرة، وتطبيق العدالة في منتهى ابهتها، كل هذه كانت في النهاية موضع هزء وسخرية. فبصورة مفاجئة، وانطلاقاً من مصادر خفية، سرت موجة من العطف على الدروز، فالجرائم التي ارتكبها هؤلاء السفاحون، وآلاف المسيحيين الذين قتلوا بلا ذنب، وبمنتهى برودة الدم، وبقسوة بربرية، وتلك النساء اللواتي قطعن إرباً إرباً، والاطفال الذين مرقوا على صدور

امهاتهم، ثم اندفاع الدروز من مسرح جرائمهم في لبنان، لتحريك مذبة دمشق التي لم تكن قد حصلت لولا وقوف عصابتهم المتجنية على بوابة تلك المدينة، يحملون اليطقانات والسيوف، وقد كشفوا عن سواعدهم، مزجرجين ليسمح لهم بالدخول الى القلعة ليطفئوا ظهائم بالدم المسيحي، الذي لم يكونوا بعد قد عطشوا إليه اذ لم يكن قد جف ما سفع منه في المذابح التي تعرض لها المهجرون، الذين كانوا قد تجمعوا في خارج القلعة - أجل لولا ذلك لربما كانت الفاجعة التي حصلب في دمشق لم تحصل.

ومع كل ذلك سرّت موجة العطف على الدروز تحمل التساؤلات الآتية:

١ - على ماذا يحاسب الدروز؟ هذا ما كان يطلب الجواب عليه. فكل ما فعلوه كان دفاعاً عن النفس.

٢ - الم يكن الموارنة في السنوات السابقة يتربصون بهم الدوائر كالنمور الجائعة استعداداً للانقضاض عليهم وامتصاص دمائهم؟!

٣ - الم يكن الموارنة قد بدأوا هذه الحرب؟!

٤ - الم يقيم الموارنة أيضاً بأعمال بربرية؟

٥ - الم يقتلوا دون مبرر وبمنتهى برودة الدم، العشرات من الدروز اثناء سيرهم في خطوات الجيش الفرنسي وهو في طريقه الى الجبال؟!

٦ - الم يكن محتملاً، لو أنهم كانوا قد رجحوا الحرب أن يقوموا بأرتكاب فظائع تساوي بشدتها أن لم نقل تزيد عن تلك التي ارتكبها الدروز فظاعة وقسوة.

٧ - اليس هناك مجرمون بين المسيحيين مثل مجرمي الدروز بل أكثر وحشية واجراماً؟!

٨ - وأخيراً، الم يطالبوا (أي المسيحيون)، بنهم وحشي، بقطع رؤوس اربعة آلاف وستمائة من الدروز؟!

٩ - الم يكن الدروز قد عوقبوا بقسوة اثناء تشردهم لعدة شهور طويلة، في الجبال والاوادية كالحوانات البرية بينا السيوف مسلطة على رؤوسهم، او تحبأوا في المغاور والكهوف يأكلون الخبز المصنوع من ثمر البلوط، الم يكن غذاؤهم طوال هذه المدة الأعشاب وجذور النبات؟.

وأمام هذا الشعور الجديد بالعطف على الدروز، كان الاتراك بغاية السرور، اذ من المفروض، بعد كل ذلك أن تكون المحكمة الميدانية المتنقلة لا من أجل الدروز فقط،

بل من أجل المسيحيين ايضاً، بل كان من المؤكد أن أفكاراً مثل هذه قد وجدت لها صدى، في قلوب أفراد البعثة نفسها. هكذا ألغيت خطة الاجراءات لمحكمة ميدانية ضد الدروز إذ كان هناك شعور بالخوف الشديد، بأن يحكم بالموت على ابرياء، واحتياطاً لمثل هذه الاحتمالات المخيفة فقد تقرر أن لا يحاكم أي درزي، إلا اذا ثبت أنه قتل دون مبرر رجلاً اعزل، أو امرأة أو ولداً، وأنه لا بد من شهادة شاهدين عدلين قبل الحكم بعقوبة قصوى.

في الوقت نفسه فإن محاكمة الموظفين الاتراك ومشايخ الدروز في بيروت كانت قد وصلت الى مرحلتها الأخيرة، واللورد دوفرانين، في محادثاته مع فؤاد باشا قدم هذه التعليقات ذات الأهمية:

« بين الفئات الثلاث من المجرمين، الذين يقفون أمام المحكمة الأوروبية في قفص الاتهام، يبدو أجرام الموظفين الاتراك، ورؤسائهم، والذين بتهانهم وتقاعسهم تفاقمتم المآسي التي كان منعها مطلوباً منهم ومتوجباً عليهم، دائماً موضع الاهتمام الشديد » هذا كان ما توصل إليه المبعوث البريطاني عند تبادل الرأي، على الاخص فيما يتعلق بسلوك الضباط الاتراك الذين تورطوا في الاحداث الاخيرة، وكان من الواضح، أن أي حكم يمكن أن ينال موافقته، يجب أن يضع هؤلاء في رأس قائمة المجرمين، لتنزل بهم اقصى العقوبات.

أما المبعوث النمساوي فكان يعارض أي حكم بالأعدام والمبعوثون الآخرون، كان المعروف عنهم أنهم يطالبون بتطبيق القانون بحذافيره. لذلك فبالحكم على مشايخ الدروز بالموت وعلى الضباط الاتراك بالسجن فقط فلن تكون النتيجة إلا اثاره الشقاق في اوساط البعثة، وإيجاد الفرصة لكل اولئك المجرمين، الذين وقفوا في قفص المحاكمة، للاستنارة من هذه المفارقات الطارئة.

أن نتائج هذه المناورة كانت متوقعة. فمنذ اللحظة الأولى التي وضعت فيها المحاكمات في هذا الإطار بدأت البعثة تشغل بخلافاتها حول الموضوع ككل، ولم تتمكن من الوصول الى أية نتيجة.

في هذا الوقت بالذات، توجه فؤاد باشا إلى المختارة، تاركاً المبعوثين يتخبطون في مستنقع خلافاتهم، محاولين اخراج انفسهم من المأزق الذي وقعوا فيه. أما الاجراءات

التي اتخذت في المختارة فلا ضرورة للعودة إليها ثانية، بل تجب الملاحظة، مع ذلك، أن ما ساء فؤاد باشا بالتدابير المستعجلة التي ساهم الى حد كبير بها كولونيل فرايزر، باندفاع وحيوية، فقد اسفرت عن الحكم على خمس وعشرين من الدروز بالاعدام، استناداً الى اثباتات غير قابلة للشك، في أن كلاً منهم، قد اقدم دون مبرر على ذبح أكثر من دزينة من المسيحيين، وقد طلب بمنتهى الشدة والحزم تنفيذ الاعدام بهؤلاء الملتطخين بدماء الابرياء، وعلى هذا فكان من رأي فؤاد باشا أن عملية الاعدام، على مراحل، في اوقات مختلفة، سيكون لها وقع اشد، من اجراء التنفيذ في يوم واحد وبصورة جماعية، مقترحاً أيضاً أن لا ينفذ حكم الاعدام بالمجرمين الموجودين في المختارة قبل معرفة ما سيكون مصير مشايخ الدروز في بيروت وقد اخذ بهذا الاقتراح المضلل، وثم كسب يوم آخر ووقت آخر!!

ولما عاد المبعوث العثماني الى بيروت وجد البعثة عاجزة عن تحقيق ولادة لخطتها بعد هذا المخاض العسير، اذ كان كل مبعوث يدرس الاجراءات منفرداً، ويضع عنها تقريره الخطي منفرداً، وكان المبعوثون ينصرفون بعد ذلك إلى قراءة هذه التقارير مجتمعين، الرأس الى جانب الرأس، ثم يستدعون اعضاء المحاكمة، القضاة، لمساعدتهم في استنتاجاتهم، ولكن دون فائدة - ولم يستطيعوا حتى في المحاورات والتشاور فيما بينهم، أن يميزوا رأس المهمة من ذنبها.

★ فالمبعوث النمساوي، كان يعتقد أن الضباط الاتراك قاموا بواجباتهم.

★ والمبعوث البروسي كان من رأيه اعدام الاتراك والدروز على السواء.

★ والمبعوث الروسي كانت لديه محكمته الخاصة، ويرفض الاجراءات التركية ويعتبرها مضحكة، لذلك قام بجمع معلوماته بوسائله الخاصة فيما يتعلق بجرائم المجرمين كلهم، وبنى على هذه المطالعات قراره الخاص.

★ أما المبعوث الفرنسي فكان يطالب برأسين اثنين من الدروز فقط، ولكنه كان يركز على ذلك الرأس الذي يمثل الأقطاعية الدرزية المثالية، « سعيد بك جنبلاط » فأنبى المبعوث البريطاني للدفاع عنه بروح عالية تستحق هذا المستوى، غير معترض في الوقت نفسه على اعدام ما يصل عددهم الى ثلاثين أو اربعين من اكابر الدروز الاقل شأناً.

وهكذا كان حقل المحاورات التحليلية يضيق أكثر فأكثر، يوماً بعد يوم، وعوضاً

عن اجراء النقاش على أسس قوية من العدالة، والعطف الانساني، فقد كان ينطلق من أسس واهية بحكم الحسد، والتحيز المُعْرض - ولما كان لا بد وأن تصل هذه المحاورات الى نهاية، فإن البعثة في جلستها الرابعة والعشرين في الثاني من آذار مارس سنة ١٨٦١، وبعد أن كانت قد وضعت المبعوث العثماني هدفاً لتهجماتها لمدة ست ساعات متواصلة - تهجمات تبادلها المبعوثون الأوروبيون زملاؤه الواحد تلو الواحد ضده، وقف، هذا الذي تمكن من التجلد والصبر ست ساعات، وقال، معنناً أسفة، الشديد، بأن اعادة النظر في الاجراءات، وهو ما قامت به البعثة، لم يؤدّ الى نتيجة، وأن الاختلاف في الرأي ظهر شديداً، لذلك فأمام هذه الحقائق ليس لديه إلا أن يُحيل كامل الامر على القسطنطينية (وفي هذا تأخير آخر وكسب آخر للوقت).

وفؤاد باشا كان قد اعتاد أن يجيب المتسائلين عن نتائج المحاكمات، وعن البدء بتنفيذ احكام الاعدام بقوله، براءة « عندما يتوصل هؤلاء السادة الى اتفاق بالرأي ».

وبالفعل فقد ارسلت كل ملفات التحقيقات الى القسطنطينية وهناك تلاشت كفقاعات الصابون، وبأرادة الدول المسيحية انتهت عملية العقوبات على الجرائم الكبرى التي ارتكبتها الدروز والمجرمون - بأصدار عفو عام عن المجرمين والقتله والسفاحين من كل فئة، ومنزلة أو درجة، ولم تمس شعرة واحدة من تلك الرؤوس، بما فيهم اولئك المحمديون البرابرة من صيدا الذين ثبت، أنهم دون أي استفزاز، بل اندفاعاً من نزعة همجية وتعصب لدينهم، ذبحوا دون رحمة الرجال، واغتصبوا نساء المهجرين المسيحيين اللواتي هربن من الجبل الى تلك المدينة طلباً للنجاة.

أيها القراء المسيحيون! اليس كل هذه أعمال وحشية! أليست هي فوق المعقول؟ أليست هي بمنتهى القسوة؟! أليست هي مهينة لعقيدتنا؟ أليست هي عمل غير انساني؟

ويا أيها الشعوب المسيحية! هل ينقصكم أن تعرفوا بعد الذي تقدم القول فيه، أن أفضل فضائل المسيحية في هذه المناطق التي اشرقت عليها طلعة السيد المسيح، مخلص العالم، قد ضُحيت على مذبح الدبلوماسية؟ ألم يضع كل جهد لمعاقة الجرمين، رغم ما كان من ويلات ومأس؟ ألم يُعطّل مفعولها، من نفس الدولة التي إنما جاءت هذه الدول من أوروبا لتنظيمها وتوجيهها.

أيها الاباطرة المسيحيون والملوك! إلى متى ستستمرون بتجاهل القضية المقدسة، التي

تظاهرون بالتمسك بها، وتجلبون بصورة فاضحة خطر الهلاك للمسيحية بأدعائكم
حايثهم ادعاءً كاذباً، بتخاصمكم المغيب وأطباعكم وأنانياتكم، إلى متى تلتطخون بالعار
وتلوثون صوابعكم بالخزي وتعرضون أسم المسيح للاهانة على رؤوس الاشهاد،
باستسلامكم للأتراك الذين يقودونكم إلى حيث يشاؤون كالعبيد !!

الملاحق - يكتبه المترجم - فندي الشمار

وكذلك كانت هنالك توقعات لمؤلف كتاب «الدروز والموارنة من ١٨٤٠ -
١٨٦٠». فما الذي توقعه المؤلف وهو سياسي كان يرأس بعثة انكليزية إلى الشرق
الادنى:-

- ١ - توقع تشرشل ان يثير العالم المسيحي ضد العثمانيين المسلمين بألصاقه فيهم تهمة
التعصب الاعمى ضد المسيحية (هذا وجد له راندل مبراً في كتابه).
- ٢ - توقع ان يثير اهتمام دول الغرب المسيحية، للتمسك بهذه المنطقة التي تقع شرقي
البحر الابيض المتوسط فيشرکہم في مجابهة العثمانيين.
- ٣ - توقع ان يستميل احدى طوائف لبنان (الدروز) إلى نظرة الانكليز.
- ٤ - توقع ان يكون للانكليز علاقة قوية مع سوريا، كما كانت معروفة في ذلك
الوقت، لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية.
- ٥ - توقع ان لا يستطيع الموارنة والدروز التعايش في بلد واحد وتوقع المسيحيون،
وعلى رأسهم البطريرك الماروني:

- ١ - ان يطردوا الدروز من جبل لبنان ويحلوا محلهم، ولما فشلوا توقعوا من دول اوروبا
المسيحية ان تنزل العقاب بهم فتقطع اربعة آلاف وستماية رأس من رؤوسهم مع ان
عدوهم لا يزيد عن خمسة آلاف.
- ٢ - ان يستولوا على املاك الاقطاعيين الدروز.
- ٣ - ان يتخلصوا من سيطرة الاقطاع الدرزي على المسيحيين المقيمين في قرى درزية.
- ٤ - ان يتمتعوا بحرية اكثر في ظل الحكم العثماني ويتحرروا من الخوف الذي يلازمهم
ابداً.

- ٥ - ان تكون علاقتهم بالغرب وخصوصاً بفرنسا قوية ومتينة ودائمة.
- ٦ - ان يجعلوا من فرنسا حامية دائمة لهم وتوقعت البعثة الاوروبية التي كانت مؤلفة من خمس دول هي انكلترة، وفرنسا، وروسيا، وبروسيا، والنمسا:
- ١ - ان تجعل الدولة العثمانية خاضعة لمشيئتها سياسياً وادارياً.
- ٢ - ان تعمل ما يرضي المسيحيين من انزال اشد العقوبات بالدروز والمسلمين الذين اتهموهم بذبح المسيحيين وتدمير ممتلكاتهم.
- ٣ - ان تثير الدول المسيحية في الغرب ضد المسلمين، وكأنما كانت تدعو الى حرب صليبية اخرى.
- اجل هذه التوقعات التي ذكرت بعضها منها تكررت بعد ما يربو على مائة وخمس وعشرين سنة أو تزيد ولا تزال تتفاعل بين مد وجزر فلا لبنان يتعلم منها درساً ولا الدول الغربية تتعظ بما آلت اليه الأمور. ولبنان سيبقى على ما يظهر وما يتوقع له المؤلفان ارضاً يتصارع عليها الجبابرة على حساب راحة اهله وسعادتهم شاؤوا ذلك أم أبو.
- أن القاريء اليوم في ١٩٨٤ أو فيما بعد سيجد امامه هذه التوقعات قائمة ويجد نفسه مشاركاً في هدم ذاته وتدمير نفسه ليستفيق في كل مرة نادماً ولو بعد حين، على ما اقدم عليه دون ترو.